AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

892.78
N73 n A
C.1

عبد الله نيازي

نهاية حب

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة الراعي بغداد

١٩٤٩

تنبيه

« ليس لاسم هذا الكتاب هذا اية صلة باحد فاذا شابه بعض الناس احد ابطاله فليس ذلك الا من باب المصادفة فقط »

« المؤلف »

الاهداء

الى ذوي القلوب الحساسة والشعور الرقيق .. اذا كان هناك اناس لهم قلوب حساسة وشعور رقيق الى هؤلاء اهدي هذه النفثات ...

ع . نبازي

« ليس كل من عصر عينيه فقد بكى ، انه البكاء لا شرف من ذلك ... وما انه لقيت باكيا الا رأيت وجهه مقبلا على كأنه يسألني : ترى هل ابيه يذبح الانسان اذا كانت دموعه هي دماء روحه ..

اريد انه ابكي بكائي الطبيعي ايها القمر ، لانه يخيل الى انه هنالك كثيرة تغتسل بدموعي »

مصطفى صادق الرافعي

كلمة

بقلم الاديب الاستاذ جعفر الخليلي صاحب جريدة الهاتف الغراء

قرأت هذه القصة واعجبت بها ولم يكن اعجابي بها لانها حوت من الحوادث والغرائب ما يستأثر بكل الانتباه او بعضه ، ولا لانها كانت نسيج وحدها من حيث السبك والاسلوب ، وانما لانها كانت اول قصة طويلة يضعها شاب أديب ، واول محاولة ادبية خلت مما اعتاد معظم ادبائنا الشباب ان ينتهجوه في اوليات محاولاتهم الادبية من تعقيد في الرأي وخيال لا ينطبق على واقع وفرض امور لا يمكن ان تجري على بال . فقصة (نهاية حب) التي كتبها الشاب الاديب عبدالله نيازي قصة لا يبعدها عن الواقع شيء بل اني لاجزم بأنها الواقع بنفسه لا تغيير فيه الا في الاسماء ولا تبديل الا في الزمان فهي قصة ان لم تكن مرت عليه فقد مرت على قريب له او صديق لم يكتف بأن يعرف ماجرى له وما كان يكتنفه بل سعى الى ان يتغلغل الى اعماق نفسه فيصور حتى دخيلتها وما علق بها من هم وغم وتقلب في النزعة والافكار وهي امور قد تبدو سهلة فيها وهي بالفعل سهلة عند الذين زاولوا كتابة القصة وأفلحوا فيها . اما البواكير وأما المحاولات الادبية الاولى فقلما استطاع واضعوها ومحاولوها ان يوفقوا لقراءة انفسهم وقراءة من يعرفون بحيث يتصدون الى معرفة ما يجول في اذهانهم

واذا أعوز قصة (نهاية حب) شيء مما تقتضيه القصة الكاملة من حيث الترتيب والتنسيق والالفاظ فهو شيء غير ذي بال ما دام العنصر الاساسي في القصة ـ وهو سوقها بحقيقتها وابتداؤها من نقطة طبيعية معينة وانتهاؤها في نقطة طبيعية معينة ذات مغزى يجدر ان يكون قاعدة نفسية من قواعد الحياة العامة — اقول : ان ما ينقص هذه القصة لا يعد أمرا ذا بال ما دام العنصر الاساسي في في هذه القصة متوفراً وما دامت الدعامة التي بنى عليها الكاتب قصته قوية بعض القوة

واني أرى ان السيد عبدالله نيازي أول بالتهنئة في باكورته هذه من الملامة والنقد ما دامت كفة التوفيق أرجح من كفة الاخفاق في روايته هذه التي اخرجها الى حيز الطبع متمنياً له ولزملائه من ادباء الشباب التوفيق .

جعفر الخليلي

— ١ —

تهامس الرجال فيما بينهم وتحدثت النسوة في مجالسهن وقال بعضهم لبعض ان عمر افندي سيتزوج ولن ينقضي شهر الا وتكون الزوج في بيته وانه الآن يهيء نفسه ويؤثث داره ، يبيع القديم ويشتري الجديد .

وعمر افندي رجل يشرف على الاربعين من عمره او جاوزها قليلا ، طويل القامة ، ابيض اللون يضرب الى السمرة قليلا ، قوي البنية ، صحيح الجسم مستدير الوجه ، دقيق الانف ، يحوط فمه شاربان لا هما بالكثيفين المدببين ، ولا هما بالخفيفين ، المقرطمين ، بل انه اطلقهما على استواء شفتيه وقد عمل فيهما المقص بعض التهذيب والتنظيم .. يضع على عينية نظارة يستعين بها في اعماله وقراءته وهو موظف حكومي قديم مضت عليه مدة طويلة في خدمة الحكومة الا ان راتبه كان لا يزيد عن الخمسة عشر ديناراً ، لاهماله في المطالعة بحقه ولان الحكومة نفسها لا تتذكره لتشمله بالترقيه — مع صحبه الذين يرقون — الا بعد مضي وقت طويل من استحقاقه ، فاما ان

يسأله رئيسه عن موعد ترقيته فيذهب ينقب في (الدوسيهات) وحينذاك يعلم ان بضع سنين مضت على استحقاقه، واما ان تأتيه ترقية شملت جميع موظفي الدولة . . ذلك لانه كان زاهداً في دنياه ، قانعا بالقليل ، فالراتب الذي يتقاضاه من الحكومة يكفيه الشهر كله ويفيض عن حاجته فهو راغب عن كل حاجة تدخل في ضمن الكماليات حتى انه ادخل اكثر الضروريات الى صنف الكماليات ..

ونقل عمر افندي مع من نقل الى هذه البلدة من موظفي الحكومة لنيلهم الترقيه وقد وصل عمر افندي الى هذا البلد وتسلم مهام منصبه واكترى له داراً متواضعة للسكنى ، فتوجهت اليه انظار ، وتطلعت له عيون ، وتبسمت له شفاه ، وسرعان ما ألفه أهل البلدة وسرعان ما الفهم لهدوء طبعه وصفاء نفسه ونقاء سريرته وأول ما لفت أنظارهم ان الساكنين في كنفه والساكنين على بعد منه بدأوا يسمعون صوتاً لم يسمعوه من قبل ، صوتاً عذباً صافياً رخيماً يجلجل في الفضاء قبل طلوع الشمس بساعة يحمل اليهم آياتٍ بيناتٍ من القرآن الكريم فينتهي الى آذانهم فيوقظهم من النوم فيجلسون على الفراش يرهفون آذانهم ليتهي اليهم الصوت بأعذب ما يكون ، تسطع فيه الآيات سطوع السماء ، مشرقة كالشمس .. فتزداد نفوسهم صفاء وتمتلىء قلوبهم تهيباً فيتلو منهم الورود من يتلو ويتمتم بعضهم بالأدعية ويمسحون وجوههم بكلتا يديهم ويقومون للصلاة ، ثم بدأوا يسمعون الصوت هذا في كل يوم وفي وقت محدد ، قبل طلوع الشمس بساعة

لا يزيد ولا ينقص .. فسعوا اليه يبغون وده ويطلبون عشرته ، وأقبل هو الآخر عليهم وصار يغشى مجالسهم ويحضر انديتهم حتى اصبح واحداً منهم لا يفرق بينه وبينهم فارق ، وقد لا ينتظم العقد اذا لم يحضر وصاروا لا يبدأون الحديث اذا لم يستقر بينهم ويتصدر مجلسهم ويفتتحه بذكر الصحابة والخلفاء الراشدين فينقل اليهم اخبارهم ويحدثهم باحاديثهم وما كان عليه المسلمون من الاخلاق والعادات وكيف انتهى بهم الى هذه الحال المنكرة والوضع الذي لا يطاق ، وكثيراً ما كان يجرهم الكلام الى النساء وكيف يجب ان يكونن وما هي الواجبات التي يجب ان تتبعها الزوج في تهيئة شؤون الدار وخدمة الزوج وتربية الاولاد فينتهزون الفرصه هذه ويسألونه عن سبب احجامه عن الزواج طيلة هذه المدة وقد بلغ من العمر عتياً وهو يعاني الوحدة ويقاسي الحرمان ، وكيف استطاع ان يكبت عاطفته وما هي الاسباب التي انحرفت به عن طلب الزواج وهو فرض واجب على كل فرد اقرته الاديان والسنن الطبيعية ولكنه لا يكاد يسمع مثل هذا حتى يدير الكلام بلباقة الى موضوع آخر يختلقه اختلاقاً على انه كثيراً ما كان يطرق فى وجوم ولم يجبهم بحرف حتى استحلفهم ان لا يعيدوا عليه حديث الزواج بعد هذا لانه ليس لديه شيء يقوله لهم الا ان الظروف لم تساعده من قبل ولا يظن انها ستساعده وكان كما أراد فما عاد بعد ذلك احد يسأله هذا السؤال أو يستفسر منه عن الاسباب ، ولذلك كانت دهشتهم

عظيمة حينما علموا انه سيتزوج وسيتزوج فتاة لاهي من فتيات البلدة، ولا من الاقاليم المجاورة، ولا من الشمال ولا من الجنوب، بل انه سيتزوج فتاة بعيدة، بعيدة عن وطنهم وبعيدة عن اخلاقهم، فتاة نزحت من بلاد الانضول مع امها واخواتها الثلاث تزوجت كبراهن رجلا كان يعمل في الخدمة العسكرية العثمانية وأتى بهم جميعاً الى العراق بعد ان اخلى الاتراك العراق والغيت وظيفته هناك .. وأخذ يتساءل بعضهم من البعض، من هذه الفتاة؟ بل من الذي اوصله اليها؟ واوصلها اليه؟ انه لم يبرح بلدتهم منذ عدة سنوات، وهو منذ جاء لم يفارقهم ولم يفارقوه فمن هو اذن ذلك الذي رتب الامر واعد العدة واستطاع ان يقنعه بالزواج، ومن هي هذه الفتاة الاجنبية، وما هي ابرز صفاتها وكانت ظنون تذهب بهم وظنون تجيء بهم وهم لا يستطيعون ان يدركوا سر هذا اللغز المبهم .. وسألوه عن صحة هذه الشايعة التي تدور على ألسنة الناس فأيد لهم ذلك ولم يزد شيئا على تأييده غير انه قال بأنه سيتزوج ...

— ٢ —

مضت أيام ومضت أسابيع واعلن ان فتاة عمر افندي ستحتفل اليوم . وكان كل شيء قد جهز ورتب ، وساعدته في ذلك نسوة جيرانه وتولين تنظيم الدار وتنظيفها وتهيأتها ، فكان يأتي بالمتاع ويلقيه الى ليضعنه في محله المناسب ، حتى اكتملت الدار واثقت بالجديد وما كان يعوزها الا ان تأتي العروس وتحل فيها ، وهيأ نفسه في ذلك اليوم وارتدى حلته الجديدة التي اعدها لهذه المناسبة وهيأ اصحابه وهيأ انفسهم وخرجوا لاستقبال العروس وبيناهم في انتظارها اقبلت سيارتان عن بعد الاولى تحمل العروس والثانية تحمل اقارب العريس واستقبلوا السيارتين بالترحيب وذهبوا جميعا الى دار العريس ، ووقف الركب في الباب وأقبلت النسوة يزغردن وهن يتدافعن فيما بينهن بالمناكب والايدي وكل واحدة منهن تريد ان تحظى برؤية العروس هذه التي قيل انها جاءت من بلاد الانضول . وتزاحمت الصبيات النواهد اللواتي تكورت أثدائهن وعلت صدورهن واكتملت انوثتهن وحان وقت قطفهن يتطلعن بصبر نافد الى اليد التي سوف تمتد لقطفهن ،

يصفقن ويتزاحمن ليرين من هذه السعيدة الحظ التي استطاعت ان ان تحظى بخير رجل فى بلدتهن وهي بعيدة عنه لم تره وهو بعيد عنها لم يرها ، واول من نزلت من السيارة كانت صبية لم يبلغ عمرها الثامنة عشر عاما الا ان الناظر اليها لا يقدر انها تزيد على السادسة عشرة .. بيضاء البشرة ، ذهبية الشعر ، دقيقة الانف ، ضيقة الفم ، عسلية العينين ، دقيقة الخصر ، ناهدة الصدر ، بهرهم جمالها وادهشهم حسنها واعقبتها مباشرة امرأة في الخامسة والثلاثين من عمرها فايقنوا انها هي العروس ، لاتزيد صفاتها عن صفات الصبية التي نزلت اولا الا ان النمو قد اكتمل فيها وزادها جمالا وفتنة ، وظنوا الصبية تلك اختها الصغرى جاءت معها لتوصلها او لتقيم معها ، ونزل من السيارة الثانية اقارب العريس الذين رتبوا الامر وخطبوا الفتاة ودارت مفاوضات بينه وبينهم بالمكاتبة ووصفوا له الفتاة وزينوها له واعلموه انهم نقبوا عن اصلها وعشيرتها وظهر لهم طيب منبتها وعراقة اصلها وانها من عائلة معروفة بالزهد والمحافظة على عاداتها وتقاليدها واخبروه انه ان رفض فانه لن يجد فتاة مثيلتها او تضاهيها فابرق لهم بالموافقة وجاؤا بها .. فارتفعت الزغاريد وتعالى الهتاف ، وايقنوا ان انتظاره طيلة الاعوام الطويلة التي مرت عليه ما ذهبت سدى وما راحت عبثاً وانه استطاع بتمهله ورويته وانتظاره ان يقطف انظر الورود جميعاً ، فاعلنت الافراح واقيمت الولائم وتوافد القوم بين مهنئ ومتفرج .. وزفت العروس الى الدار بين زغردات النسوة وتصفيق

الصبيات ، ودهش القوم جميعاً واختنقت الزغاريد في حلوق النسوة وبدأت الاكف تتراخى قليلا قليلاعن التصفيق ، وارتفعت الايدي الى الاعين تفركها لتنظر من جديد ، وفتح الكل فمه دهشاً متحيراً لا يستطيع ان يفقه شيئا ، حين علموا جميعاً ان الصبية هي العروس ولم تكن تلك الا امها جاءت معها لتوصلها وترجع !!.

- ٣ -

لم يك حديث اهل البلدة طيلة الاسابيع التي انقضت غير حديث عمر افندى وعروسه التي لو قدر له ان يتزوج في صدر شبابه لكانت اصغر اولاده . . ومع طيلة هذه المدة لم يقطعوا عنه هداياه التي كانت تنهال عليه دون انقطاع لا يدري مصدرها ولا يعلم من أين تجيء حتى انتهت الاجازة التي منحته اياها الحكومة بمناسبة زواجه . وبدأت الهدايا تخف شيئا فشيئا حتى انقطعت . فبدأ عمر افندي يرجع الى حياته السابقة قليلا قليلا ، هدوء بعد عاصفة . وسكون بعد هياج .. ينعم بالحب ويغرف السعادة من يد عروسه الصبية ، فازداد نشاطاً ، وامتلأ صحة .

وتعاقبت شهور وعمر افندي لم يصدق انه يمتلك هـذا الملاك السماوي الذى شق الفضاء بأجنحة من نور وهبط في داره فاحالها الى جنة فينانة يتفيأ ظلها ويشرب السلسبيل العذب منها ، وكادت الارض لا تسعه لفرط فرحه وسروره حين علم ان زوجه حامل ، وانه سيكون أباً ، وانه سينعم بطفل ، وتضرع الى الله ان يجعله ولداً . وشاءت

الحكومة في ذلك الوقت ان تتذكره حيزلم يردهوان تتذكره فاصدرت امر نقله الى البصرة وامتثالا لامر الحكومة التي ليس لامرها مرد، وعلى رغمه هيأ نفسه واحتقب امتعته وسافر، وهناك وضعت زوجه حملها الاان المولود لم يكن ذكراً بل انثى فحمدالله وشكره على نعمته وهنأ زوجه بالسلامة التي لا يطلب غيرها . ومكثوا هناك عاماً وبعض عام وقد اوليا كل عنايتها الى ابنتها التي أنعم الله بها عليها يسودهما السلام وتطفح عليها السعادة واحست الزوجة بالحمل الثاني فبدأيعدان ثياب الطفل القادم . ويظهر ان الحكومة بدأت تتذكره في آونتها الاخيرة . فهو لم يكمل العامين في البصرة حتى اصدرت امر نقله الى قضاء مجاور لها . فاي شيء يملك غير الامتثال . فهيأ نفسه ثانية واحتقب امتعته وسافر . وقضى هناك بضعة اشهر وحانت ولادة زوجه فيها فطير برقية الى امها يستعجلها بالحضور ولم تمض اسابيع حتى كانت الام عندهما . وحانت ساعة الولادة وعمر افندي يصلي ويتلو الورود والادعية ويتضرع الى الله ان يحفظ زوجه ويمن عليه بولد وهو كل ما يرتجي . . وبينا هو في صلاته وتلاوة وروده اذ بزغاريد قوية تطفح بالبشر والفرح تنطلق من حنجرة ام زوجه . وعدت الى عمر افندي تزف اليه البشرى ونادت . .

عمر افندي .. عمر افندي . .

الا انها في اللحظة التي نادته فيها حبست الكلام في حلقها وتصنعت الاستياء وقالت :

— الحمد لله على سلامه زوجك . . المولود انثى . .

استولى عليه الذهول وأطرق هنيهة الا انه استجمع بعض قواه وتمالك نفسه وتمتم :

— الحمد لله على السلامة .. الحمد لله على السلامة ..

وامر بالرغبطة ان تذبح واعطى دراهما لتوزع على الفقراء والمحتاجين . وانتهت الولادة ووضع الطفل في السرير بجانب امه . ودلف عمر افندى الى حجرة زوجه يهنؤها بالسلامة . ومال على الطفل وقبله ثم حمله بين يديه وقعد على كرسي ووضعه بحجره وصار يناغيه وبين هنيهة واخرى يمد يده في غفلة يتلمس الطفل ليتأكد من المولود ذكراً ام انثى . ولاحظت ام زوجه ذلك فسرتها في نفسها فنالت والبشر يطفح في وجهها :

— ولد .. عمر افندي ولد . .

فاصطبغ خده بحمرة الخجل ورفع بصره بحياء وقال :

— اللهم السلامة والصحة . والحمد لله وألف شكر على انعامه علينا ولداً كان أو انثى . الا ان الشكوك بدأت تتضارب في رأسه وهو ليس متأكداً من انه ولد او انثى . اذ يمنعه الحياء من ان يمد يده ثانية وافرجت عنه ام زوجه وأتت اليه وحلت القماط عن الطفل وقالت :

— انظر .. ألم اقل لك انه ولد ؟ .

فارتسمت على شفتيه ابتسامة ملؤها لغبطة والسرور وقال :

— الحمد لله . الحمد لله . .

— ٤ —

نقل عمر افندي ثانية الى بلدته بعد تغرب دام ما يقارب الاربع سنوات ، فعاد اليها وكله حنين وشوق ، عاد الى البلدة التي احبها واحبته وفارقها كرهاً منه ، عاد الى اهلها الذين الفوه وألفهم ولولا الحكومة التي اسرته بتركهم لما دار في خلده ان يتخلى عنهم ، فاستقبلوه بحفاوة بالغة وترحيب لا مزيد عليه ، وها هوذاقد عاد الى احبابه القدماء وها هم اولاء بدأوا ينتظرون ان يتصدر حبيبهم القديم مجالسهم وهاهو ذاقد عاد يغشي مجالسهم ويختلف اليها ، لاينتظم عقدهم اذا لم يأت ولم يبدأوا الحديث اذا لم يجيء ، وتعاقبت الايام كأصفى ما تكون ، حب ملازم وود متبادل .. ومن الله عليه بولد ثان أفاض عليه البشر واغرقه في بحر من السرور والفرح . . وشاء احد المنافقين المندسين هنا وهنالك ، الذين يفرقون بين اثنين متحابين ، ويفسدون صحبة جماعة متصافية ، بالدسائس الكاذبة والفتن الملفقة ، ويوشون بشخص اذا رأوه اثيراً عند الكل محبوباً من الجميع ، اقول شاء احد هؤلاء الذين يأكل قلبهم الحقد والغيرة ان يوشي بعمر

افندي عند رئيسه ويقول عليه كثيراً مدعياً انه افسد اهل البلدة جميعا بعبثه ومجونه وانه يحملهم حملا على مشاركته في عقيدته الفاسدة وانه جاحد بالدين كافر بالله ، يسب الاديان السماوية علنا ، ويكفر بالله جهراً ويشاء رئيسه المغفل — وكان قد نقل اليهم منذ بضعة اسابيع وهو لا يفقه من امر البلدة شيئاً ولا يعلم من أمر عمر افندي شيئاً — ان يرفع امره الى مرجعه ويقدمه بلهجة عنيفة صارمة مملوءة بالحقد والكراهية ، ويطلب الامر بفصله والا فانه أي الرئيس سيقدم استقالته لان العيش مع عمر افندي غير ممكن بعد هذا ، وتمضي اسابيع ويصدر أمر فصل عمر افندي من الخدمة ويبلغه رئيسه بذلك ، ويتقبل الامر بكل سكون واذعان ويودع زملاءه وهم بين مصدقين ومكذبين ويمضي الى داره كئيب الوجه حزين النفس دامي القلب ويخبر زوجه بالامر ويخفف عنها وقع المصيبة ويرجو ان لا تأخذها الحمية ، لانه مؤمن بالله ، وليس العمل هذا من أمر رئيسه او من عمل اي شخص كان وانما هو امر الله الذي لا مرد لامره ، وانه لا يغلق باب الا ويفتح آخر ، وسرعان ما سمع محبوه الخبر فسعوا اليه وهم لا يصدقون الذي سمعوه فليس عمر افندي بالشخص الذي يفصل من الحكومة ، وكيف يجرأ احد على فصل موظف من خيرة موظفيها وان كانت الحكومة لا تأبه بخيرة الموظفين اولا تتمهل لتمحص وتفحص وتزن فبئست هذه الحكومة ، وبئس الموظفين موظفوها . . الا انه تلقاهم بابتسامته المعهودة وهدوئه السابق وخفف الامر وذكرهم بايمانهم

بالله وقال ان عليهم ان لاينسوا ربهم وكيف يجوز نسيان ا وكل حركاتهم وسكناتهم من وحيه ، وكل عمل يقومون به هو من أمره فنظر كل واحد منهم في وجه الآخر وكأنهم بنظراتهم تكلموا جميعاً وتفاهموا فيما بينهم فعرضوا عليه خدمته ومعونته. فاذا كانت الحكومة جاحدة ناكرة فلتذهب الحكومة الى حيث تذهب ، وليأت عمر افندى اليهم ، فليس هنا من يتخلى عنه أو يجحد فضله . . فشكر لهم فضلهم وطلب من الله ان يوفقهم في اعمالهم ، مضت شهور وتعاقبت سنون وعمر افندي يعيش بينهم مكرما منعماً يشتغل معهم ويقنع بالقليل من الربح ، حتى اقبل في يوم على زوجه والبشر يطفح على وجهه واخبرها ان طبيباً جديداً حاذقاً جاء منذ أيام وهو خبير باجراء العمليات وانه تفاهم معه على ان يجري له عملية استئصال الزائدة الدودية ، فتألقت الدموع فى ماقي زوجه وحذرته بلطف وتوسلت اليه ان لا يدفع بنفسه الى الموت الا انه دلف اليها وقبلها في جبينها وهدأ من روعها واخبرها بالطف ان لاخوف من العملية هذه، وليس فيها أي محظور ، ولو كان يعرف ان فيها محظوراً لما اقدم عليها ولما طاوعته نفسه بالاقبال عليها ، وبات ليله على أن يذهب صباحا الى المستشفى لاجراء العملية ، وكان الصبح واستقبله كعادته باي من الذكر الحكيم باوضح ما يكون اشراقا وأعذب ما يكون صوتاً وانتهى منه وقام الى الصلاة يؤديها ، والادعية يرددها ، وقام الى الفطور يهيؤه وأيقظ زوجه وأولاده ولفهم حوله فتناولوا فطورهم

وعجل على اولاده بالذهاب الى المدرسة وانحنى على زوجه فقبلها وذهب الى المستشفى لملاقاة الطبيب وكان قد أعد نفسه منذ يوم من حيث قلة الاكل وتسهيل المعدة ، وهنا امتثل عمر افندي اوامر الطبيب وذهب الى غرفة العمليات ونام على احدى الاسرة الموجودة بانتظاره وأقبل الطبيب بعد بضع دقائق ومعه اثنان من الممرضين وشاءت الصدف او شاءت الاقدار ، أو شاء الله ، ان يحمل الطبيب غير الحقنة التي اعدها احد الممرضين بالسائل الذي يخدر الجسم بحقنة غيرها مملوءة بسائل سام كانت قد اعدت لقتل كلب مسعور ويغرزها بفخذ عمر افندي ويفرغ السائل السام بجسمه ، ولم يشعر عمر افندي الا وكان ناراً بدأت تسري في عروقه فتلتهمه التهاما وان سكيناً يحز في جسمه ويقطعه قطعاً وسرعان ما ورم جسمه وانتفخ واخذ يصيح ويصرخ وسقط في يد الطبيب وأدرك الغلطة التي ارتكبها ، فاسرع خلسة الى الحقنة تلك وافرغ منها السائل المخدر وملأها بسائل سام ووضعها حيث هي ، ليقيم منها حجة ويثبت فيها ادعاء .. ومضت دقائق وعمر افندي يتلوى ويصرخ بشدة ، وصرخ صرخة شديدة هدأ بعدها هدوء الابد وفاضت روحه وخرجت صاعدة الى ربها ..

— ٥ —

ماذا يفيد البكاء والصراخ وان سراج البيت قد انطفى ، وماذا يفيد لطم الخدود وشق الجيوب وان عمود البيت قد هوى وماذا يفيد عزاء المعزين ومواساة المحبين وصرح البيت قد تقوض من اساسه

بكت زوجه ماوسعها البكاء ولطمت خديها حتى ادمتهما وشقت ثوبها وفعلت الاعاجيب ولكن عمر افندى مات ، لقد مات ولن يرجع.

نعم مات وترك لها صبية فى الثانية عشرة من عمرها وولدين احدهما في العاشرة والثاني في الخامسة من عمره مات وتركهم جميعاً مقطوعين في هذه البلدة لا معيل يعيلهم ولا أخ يحنو عليهم ، مات ولم يترك لهم من متاع الدنيا غير راتب زهيد اجرته له الحكومة بعد فصله وهي الآن ستقطع نصفه وتعطي لهم النصف الآخر وفوضت امرها الى الله وقبعت فى دارها لاتدري ماذا تصنع فهي حين تشرع باطعامهم تشرع والدموع تتألق في ماقيها ، وتغسل لهم وهي تجهش وترسلهم الى المدرسة وهي جازعة ، ولقد قبعت في دارها واجمة طول يومها لاتفارق الكآبة نفسها ولاتفارق الدموع عينيها . قبعت

في دارها وهي في كل ساعة واخرى يكاد يغشى عليها من ثقل الحزن الجاثم على صدرها والآلام تصطرع في نفسها .

مضت ايام وفي كل يوم كانت تفقد من رونقها شيئا و تفقد من وزنها شيئا ورسمت فى وجهها الاحزان سمات ، وطبعت في وجهها السكآبة صوراً .

واعلن في البلدة ان زوج عمر افندي بدأت تخيط الثياب بأجر لتقتات به هي واولادها ، فمن كان يحب عمر افندي ومن كان حبه عالقا بقلبه فعليه ان يذهب بثيابه اليها لتخيطها له ، لان مساعدتها فرض واجب عليهم ، وقد اقبل السكان عليها يدفعون بالضروري من ثيابهم وثياب ابنائهم وغير الضرورى بغية تشغيلها حتى لقد بعث لها من هو ليس بحاجة الى الثياب الجديدة لمجرد اظهار العطف والبر لابل دفع لها البعض اضعاف ماتستحق من الاجور ليمكنها من الانفاق على اولادها الثلاثة انفاقا جيداً فكانت مع ذلك تمضي الليل كله مسهدة باذلة اقصى جهدها في اجادة العمل . وكثيراً ما كان يستيقظ ولدها الكبير الذي هو في سن العاشرة فيجد امه محنية الظهر منكبة على ماكنة الخياطة حيث الح عليها النعاس وغلبها النوم وقد اطرقت على غير ارادة منها برأسها على ماكنة الخياطة فيقوم ولدها بكل حذر ويوقظها بصوت رقيق هادي كله حنو وكله عطف فتستيقظ مذعورة او كالمذعورة فتنظر الى ولدها والى نفسها والى ماكنة الخياطة فتفرك عينيها بكبلتا يديها وتطلب من ولدها بصوت

حزين مفعم بالحزن ان يذهب وينام ، وتقبل على الخياطة وكأن نشاطا جديداً قد عاودها ، فيشفق ولدها ويطلب منها ان تنهض لتنام معه ، فتأبى ويلح والدموع تترقرق في ماقيه وتأبى ويجهش بالبكاء ويستحلفها ان تنهض لتنام والا فانه سيسهد معها ويبكي ويبكي حتى يكون الصباح ، وتنظر اليه نظرات طويلة كلها عطف وكلها حنان وتهمل الدموع من عينيها انهالا فتقوم وتحمله بين ذراعيها تقبله ويقبلها وتلحس دموعه بلسانها ويرشف هو دموعها بشفتيه وتمضي به الى الفراش فينامان متعانقين

- ٦ -

مضى عام وعام وزوج عمر افندي قابعة في دارهـا منهمكة في خياطتها ، لا تعرف من العالم غير اولادها ولا تعرف من الاعمال غير الخياطة وغير تهيئة الطعام لاولادهـا ، توقظهم صباحـاً لتغسل لهم وجوههم وأيديهم وتلبسهم ثيابهم وتطعمهم وتودعهم بالقبل الى المدرسة ويجيئون الظهر فيتناولون الغداء وينصرفون ثانية ولا يرجعون الا والشمس قد اذنت بالمغيب ليضعوا كتبهم في محلها ويخلعوا ملابس المدرسة ويرتدوا ثياب البيت فيمضوا في لهو بريء ولعب متواصل ، وسرعان ما يخيم الظلام وينشر الليل سجفه فيذهبون الى امهم ويطلبون منها ان تعشيهم وليقرأ منهم من يقرأ ويلعب منهم من يلعب ، أما الفتـاة فكانت اول ما تنتهي من عشائها تذهب الى كتبها تحفظ الذي طلب منها ان تحفظ وتكتب الدرس الذي طلب منها ان تكتب وتمضي بعض الليل في القراءة والكتابة ، ولكن الولد الكبير كان قليل القراءة قليل الكتابة كثير اللعب واللهو ، لا يذهب الى كتبه الا بعد جهد تبذله امه ، فمرة تأخذه بالعنف ومرة تأخـذه باللين ، واما الولد الصغير فانه

يذهب الى المدرسة ويجيء فقط يلعب هناك مع من يلعب ويلهو مع من يلهو ، الا ان الولد الكبير وان كان منصرفا عن القراءة اكثر الاحيان ومقبلا على اللعب اكثر يومه الا انه كان فطناً بعض الفطنة ذكياً بعض الذكاء ، يعتمد اكثر ما يعتمد على معلميه يصغي اليهم ويحفظ مايقولون ويبقي ما يحفظ عالقا في ذهنه يكتبه متى شاء ويعيده متى ارادوا ، ولهذا كان منصرفا عن الكتب لايقرؤها ومنصرفا عن الكتابة لايكتبها ، وكثيراً ما جر عليه اهماله للقراءة تعنيف امه وضربها اياه ومباهاته باخته التي لاتفارق كتبها ، وكثيراً ما جر عليه اهماله الكتابة تعنيف المعلمين وضربهم اياه .. واخته وان كانت لاتفارق كتبها وهي دائبة على القراءة والحفظ الا ان حفظها لايعلق بصدرها غير بضعة ايام ثم تنسى ما حفظت ولاتتذكره الا بعد ان تعيد القراءة وهي لاتعيد القراءة الا خوفا من معلماتها اولا ولتظهر السبق في الحفظ على بعض اترابها في المدرسة ثانيا ، ولتتقرب من امها وتؤثرها بحبها ، فهي تنجح في كل سنة تمضي عليها وربما يجيء نجاحها متفوقاً على اترابها وكذلك كان اخوها ينجح الا ان نجاحه كان هزيلا متضعضعاً ، واما الاخ الصغير فكان ينجح سنة ويسقط اخرى ، ولقد انهت هي مدرستها واجتازت الابتدائية ورسب اخوها الكبير في الصف السادس اما الصغير فقد وصل الى الصف الثالث في ظرف اربع سنوات وكان تعنيف وكان احتقار وكان لوم كالته له امه في اغلب المناسبات ، وكان حب ومدح وثناء منها على

اختها ، وكان على امه ان توجد محلا الى اخته الذكية السباقه تأمن فيه عليها اما ارادت ان تكمل الدراسة الثانوية ببغداد ولم تجد اكثر امناً واسلم مكاناً واحنى صدراً من اختها تضمها عندها مشمولة برعايتها وحنوها وذهبوا جميعا الى بغداد ومكثوا بضعة ايام ضيوفا عند الخالة خالة الاولاد ثم رجعوا الى بلدتهم بعد ان طمنتها اختها على انها ستقوم بكل ماتحتاج ابنتها اليه وانها لن تميز اولادها عليها بشيء ، الا انهم لم يمضوا بضعة اشهر في بلدتهم حتى صدر امر تعيين الأم معلمة في احدى مدارس بغداد وقد توسط لها عند الحكومة عم الاولاد وهو شخصية كبيرة محبوبة معتمداً الشهادة التي حازت بها من الافضول ، وكان قد سعى لها لدى وزارة المعارف منذ ان توفي زوجها ولكنه لم يفلح الا في الآونة الاخيرة وقد ارسل لها امر تعيينها وقال لها يجب ان تهيء نفسها في بحر اسبوع لتتسلم مهام عملها في احدى المدارس فاجهدت نفسها في جمع امتعتها فحزمت البعض واعطت البعض الى الذين عاونوها في لم حاجياتها وباعت ما يثقل حمله وما ليس فيه حاجة وذهبت الى بغداد تصحب ولديها بعد ان ودعت من جاء الى توديعها وبكت لفراقهم وبكوا لفراقها ، فاذن سائق السيارة بالسفر فودعتهم وداعها الاخير والدموع تتألق في مآقيها ونفخ السائق في بوقه ليخلو له الصبية الطريق وسارت السيارة ببطء تحملهم جميعا ثم بدأت تسرع شيئاً فشيئاً وهم يلوحون لها حتى جدت في السير واخذت تطوي بهم الطريق طياً وهم في طريقهم الى بغداد .

— ٧ —

ونزلوا اول مانزلوا في بيت اختها الى ان يجدوا داراً متواضعه للسكنى ، وتمكنوا بعد جهد من العثور على دار لاتزيد اجرتها عن بضعة دنانير شهريا فنقلوا اليها حاجياتهم وامتعتهم وما انتهوا من ترتيبها وتنظيمها الا والجهد قد اخذهم والتعب قد اضناهم ، واستقروا في دارهم الجديدة فذهبت امهم في اليوم الثاني الى المدرسة التي عينت فيها لتتسلم مهام عملها هناك وذهبت ابنتها الى المدرسة بعد ان جيء بها من بيت خالتها ، وذهب عادل وهو اسم الولد الكبير مع اخيه الصغير الى المدرسة التي تم تسجيله فيها بفضل زوج خالته بعد ان بذل جهداً في اقناع المدير بقبوله لان درجاته التي كانت مدرجة ضمن شهادة النقل التي جيء بها من بلدته كانت ضئيلة جدا بحيث تكون عذرا لمدير المدرسة في عدم قبوله لانه لايسمح لطالب مكمال في دخول مدرسته .. الا ان زوج خالته رجاه والح في رجائه على ان يأخذ على عاتقه تعليمه وتدريسه ، فذهب الى المدير ليشهده الى الصف ، واخبره المدير بدوره بوجوب السعي المتواصل والاجتهاد

الحديث ليتمكن من اللحوق بأترابه من الطلاب والا فانه سيضطر الى فصله اذا وجد منه تباطؤا في الاجتهاد وتلكأ في تحضير واجباته فوعده بذلك وهو مطرق وارسله مع الفراش ليوصله الى الصف السادس وليوصل اخاه الي الصف الثالث .

وكانت امه تضطر الى طهي الطعام وتهيئته ليلا ليكون غداءهم في اليوم الثاني لأن الواجب يحتم عليها ان تذهب الى المدرسة مع من تذهب من الطالبات في الصباح الباكر فكانت تأبى اذا كان الظهر على عجل لتدفيء الغذاء وتهيؤه وهي لاتكاد تنتهي من عملها حتى تقبل ابنتها اولا ثم ولديها بعد ذلك ويجلسوا الى المائدة بصمت اووجوم فليست زوج عمر افندي من اللاتي يجد المرح الى قلوبهن سبيلا ، ولا الابتسامة تعرف طريقها الى شفتيها ، ولا الضحك يجد منفذاً الى نفسها . مذ مات زوجها وترك لها هؤلاء الاولاد الثلاثة تعاني بسببهم ما تعاني وتشقى في سبيلهم ما تشقى ، لم لا وهي لما تزل في ريعان الصبا وربيع العمر ، لم لا وفورة الشباب لا تزال تصطرع في نفسها وتضطرم في صدرها وهي في مثل هذا الجمال الاخاذ والجسم الممتلىء الغض .. وباستطاعتها وهي في هذه السن ، وفي مثل هذا الاشراق ان تجد من يخدمها ويرعاها ويقدم لها العطف والحنان كما هو عليه هؤلاء اللاتي اذا وقفن بجانبها تضاءلن وانمحين كأنهن غير الموجودات .

ومع ذلك فانهن يعشن هادئات سعيدات في كنف ازواجهن

لا يرفض لهن امر ولا يخيب لهن رجاء ، فكثيراً ما كانت تفكر ويطول تفكيرها فتنهمل الدموع من عينيها انهالا بغير وعي او ارادة منها .. لذلك فهم ينهون فطورهم او غداءهم أو عشاءهم أما بسكون ووجوم واما بعويل وبكاء من ولدها الكبير . . فانها تضطر في بعض الاحيان الى ضربه اذا تمادى فى طيشه أو نزقه ، فيبكي ويصرخ وهو ان بكى استمر في بكائه لا يسكت الا بعد ان يأخذه التعب ويبح صوته من الصراخ ، ولا يسكت الا بعد ان تأتي اليه امه تقنعه وترضيه فيبطل البكاء ويسودهم الصمت وتجد الكآبة طريقها اليهم.

وهداءت الصدف ان ينقل زوج اختها الى الجنوب فذهبوا الى توديعهم وسافروا

— ٨ —

ومضت حياتهم ، رتيبة تسير على وتيرة واحدة لاتغيير فيها ولاتبديل ، يكون الصباح فيتناولون فطورهم ويذهبون جميعاً الى المدرسة ، الام الى مدرستها والبنت الى مدرستها والولدان الى مدرستها ، ويكون الظهر فيجيئون جميعا ليتناولوا غداءهم ويذهبون ثانية الى مدارسهم ، ويكون العصر وحين تأذن الشمس بالمغيب يؤوبون جميعاً الى البيت فتمضي الام الى طهي الطعام واعداده الى اليوم الثاني وتمضي البنت الى دروسها تقرأ وتكتب ويمضي عادل ليلعب مع اخيه طورا ويتشاجر معه طورا آخر ، فيضربه حيناً فيصرخ وتأتي اليها امها وكثيرا ماضربت الاثنين ، ولم يجد عادل غير داره يلعب فيها ويلهو ، ومع من يجب ان يلعب وهو لم يجد بعد صديقاً واحدا ليذهب اليه ، اما اولاد المحلة فهو لم يتعرف بعد على احد منهم ، ولم يدر كيف يتعرف بهم وهو غريب نزح من بلدة نائية في الجنوب ، غريب عن عاداتهم ، بعيد عن اخلاقهم ، بل كيف يجرؤ على التحدث اليهم وقد لاقى مالاقى من الطلاب في المدرسة فهو

لايكاد يتكلم الا ويثير الضحك عليه وعلى هذه اللهجة التي ينطق بها وعلى الكلمات التي يتفوه بها ، تلك اللهجة النابية التي لم يسمعوها من قبل ولم يالفوها ، وتلك الكلمات التي يمدها مدا حين يجب الاقتصار او يقصرها حين يجب ان يمدها وتغييره بعض الحروف وقلبها وهو مايكاد ينطق بكلمة حتى يغرقوا في الضحك ويعيدوا ماقال بسخرية واستهزاء فابتعد عنهم ليتجنب سخريتهم والغيظ يكاد يأكل قلبه فيقبع في احد اركان المدرسة يسترق السمع الى الكلام الذي يدور حوله علّه يستطيع ان يغير بعض الفاظه وبعض كلماته ويجعل كلامه طليقاً كاهم يتكلمون بطلاقة لايمدون الالفاظ ولا يقصرونها.

وهو على الرغم من الطيش الذي كان يظهره في بيته وصخبه وهياجه الا انه كان هادئا ساكناً اذا خرج من الدار ، لا يلتفت الى احد ولا يتكلم مع اي كان ، يذهب في طريقه الى المدرسة لا يحول بصره عن الارض ويجيء الى البيت من الطريق التي ذهب منها ، ولا يخطر بباله ان يرد الصفعة اذا صفعه احد بل كيف يستطيع ان يرفع يده وهو يعلم انه ان فعل فان اولاد المحلة جميعا سيحيطون به ويوسعونه ضربا ولكما ، لذا فانه يتجنب أذاهم ويبتعد عنهم ما وسعه الابتعاد ويكفي ان يجعل من داره خير مسرح يعمل فيه مايريد ان يعمل وكان الامتحان النهائي فانصرف الى كتبه يقرأ دروسه ويحضر واجباته لاحباً بالعلم ورغبة في النجاح وانما خوفا من المدير الذي انذره بالطرد ومن أمه فأنه يعلم انه اذا رسب في هذه

السنة فان القيامة ستقوم على رأسه ولاتترك من جسده بقعة دون ايلام فاخذ يقرأ ويقرأ بدون شوق وكان حين يحين العصر وهو الوقت الذي ألف فيه اللعب لا يستطيع ان يرى شيئا مما يقع تحت عينيه لفرط تفكيره في اللعب ، والواقع انه كطفل يلزم له ان يلعب وان يأخذ نصيبه من اللعب ولكن عدم فهم المشرفين على تربيته مثل هذا الواجب وعدم تنظيم كل شيء وتخصيص وقت معين له للعب قد جعله يشعر بالحرمان ويفرط كلما حانت له فرصة في اخذ اكثر مما يستحق من اللعب ، ولعل اشتياقه لهذا اللعب قد اوحى له وجوب السعي والقراءة والانكباب على المطالعة سواء كان ذلك بوعي أوغيروعي لكي ينجح لان تحقيق رغبته في اللعب اصبح منحصراً في النجاح وحده وعلى رغم شرود ذهنه واتجاه باله للعب ألفى نفسه يقرأ ويقرأ حتى نجح في تلك السنة ونجحت اخته ونجح اخوه ايضا فقبلته امه كما قبلت اخته واخاه الصغير وفرحت بهم جميعاً وما كانت الارض تسعها لفرط فرحها وسرورها . كيف لاتفرح وهم كل املها في هذه الحياة . كيف لاتفرح وعيناها تترقبانهم يوما بعد يوم ليكللوا دراستهم وليمينوها على هذا الجهد الذي تلاقيه بسببهم وقد ضحت بشبابها وكبتت عاطفتها وحرمت نفسها من كل مايبهج ويفرح بسببهم وبسبب تربيتهم وتنشئتهم وقد فرحوا كلهم في ذلك

اليوم وفرح هو لانه نجا من الضرب الذي كان بانتظاره . . وبوسعه الآن ان يلعب مايريد ويقفز كما يشاء فليس هناك احد يمنعه او يضربه لانه نجح في الامتحان ونجاحه هذا يجيز له اللعب والقفز

واضافتهم في المعطلة الصيفية اختها الثالثة وهي اصغرهن سناً وفي الرابعة والعشرين من عمرها تزوجت في السادسة عشرة من رجل ذى منصب في الجيش مات بعد تسع سنوات من زواجها به في حادثة اصطدام كادت تذهب بهم جميعاً الا ان الله آثره وحده فمات متأثراً بجراحه البليغة تاركا لها ولداً وبنتاً فالولد في الثامنة والفتاة في السابعة وشاء الله ان يلحق الولد بابيه بعد بضعة اشهر من وفاته بمرض ذات الرئة لازمه بضعة اسابيع ولم تفد محاولات امه ومساعيها في انقاذ ابنها من دائه فهي لم تنفك طيلة مرضه من جلب طبيب تلو طبيب تعمل بارشاداتهم الا انه لامرد لارادة الله وقد اراد ان ياخذ الطفل اليه فاخذه ، وتزوجت بعد مضي عام او اكثر قليلا من وفاة زوجها من رجل في مثل سنها تقريبا وسافرت معه الى مقر عمله ورزقت منه بطفلة كان لايزيد عمرها عن بضعة شهور حين نزلت في ضيافة اختها ، فرحبوا بهم اي ترحيب واكرموا وفادتهم واحسنوا ضيافتهم واخبرتها اختها ان زوجها قد نقل الى بغداد وانهم باحثون عن دار

لسكناهم ولم يطل بهم المسعى ولم يجهدهم البحث حتى وجدوا دار متوسطة تمتاز بحديقة تحوطها من جهاتها الثلاث وانتقلوا اليها بعد ان جاؤا بحاجياتهم ، وفرحت اختها بمجيئهم لانهم سيكونون لها خير سلوى وعون فانها تستطيع الآن ان تنفس عن نفسها وتبعد عنها بعض الآمها بالتزاور فيما بينهما . وفرح عادل لانه وجد في ابنة خالته رفيقاً جديدا يستطيع اللعب معها متى شاء ويستطيع ضربها اذا بت ان تلعب معه . فكثيراً ما كانوا يذهبون اليهم وقليلا ما كانت تجيء الخالة اليهم مع زوجها تاركة ابنتها الصغيرة عند اختها من ابيها السابق لانها لا تستطيع ان تجيء بها خوف العوارض وخوفا من التقلبات الجوية التي تحدث فتمرض احداهما ، فهي قد ذاقت مرارة الفجيعة مرتين ، مرة في زوجها الذي مات امام عينيها والدم يسيل من رأسه ووجهه وجسمه ومرة في ابنها وقد اغمض عينيه وهو بين يديها لذلك فانها تخاف اشد الخوف من ان تمرض احدى ابنتيها فهي لذلك تحرص عليها اشد الحرص وقد اعتذرت الى اختها من عدم امكان زيارتها المتواصلة لهذا السبب فراحت الاخت الكبيرة هي التي تزور الصغيرة

وانقضت العطلة ، وكانت طويلة قصيرة ، طويلة على بعض قصيرة على البعض الاخر طويلة على الفتاة لانها تألف المدرسه وتأنس بها ولها فيها بعض الصويحبات تشاركهن اللهوة مرة والدراسة اخرى وقصيرة على عادل بل كانها حلم لذيذ انتهى بانقضاء الليل وطلوع الشمس وكم كان يتمنى ان يطول الليل ليغرق في الحلم اللذيذ . فهو

اشـــد مايكره المدرسة اذ ليس له فيها اصحاب يلعب معهم ويلهو وليس له فيها اصدقاء يخلصون له الود ويصطفيهم . اما اخوه الصغير فعليه ان يذهب الى المدرسة كرها اوطوعا .

وفتحت المدارس ابوابها بعد اغلاق دام ثلاثة اشـــهر كاملة فاستأنفت الام عملها وذهبت البنت الى مدرستها وذهب عادل الى مدرسته بعد ان تم تسجيله في احدى المدارس المتوسطة وذهب اخوه الى مدرسته الاولى وعادوا الى حياتهم السابقة . الام في تهيئة الطعام والبنت في القراءة والكتابة وعادل في لعبه ولهوه ، ولا يمضي الى دروسه الا بعد ان يكل هو من اللعب ، او تأخذه امه عنوة وتمضي به ليقرأ . وكثيراً ما كانت امه تشكوه الى خالته اذا ذهبوا اليهم تشكوا هياجه الذي لاينتهي وتشكو طيشه الذي يؤدي في كثير من الاحيان الى كسر بعض الاواني والصحون اذا هي حاولت منعه اوتعنيفه . وتشكو اهماله لدروسه وعدم احضاره واجباته ، وتنهال عليه خالته تقرعه بقارص الكلام وتعيره باخته وبأترابه الذين هم اصغر منه سنا ومع ذلك فانهم اكثر منه صفاً واحسن منه سعياً واجتهاداً ، وهو يسمع ذلك ولايزداد الا عنادا ولايزداد الاتباطؤاً في الدرس ويكثرون من لومه وتقريعه بكل ما يحضر في لسانهم من الفاظ قاسية وكلمات قارصة ويكبر هو من عناده وتباطئه ، حتى اعلن انه ترك المدرســة ولاينوي الذهاب اليها مهما حدث من امر ومهما اوسعوه ضربا ومهما انحوا عليه بالقارص من الكلام ، وليعلمهم من

انه لايخافهم ، ومن ان تقربهم اليه لايحرك منه ساكناً اذا هو كان راغباً عنها . فصفقت امه يداً بيد ولجأت الى اللين ولكن بعد ان استحكم منه العناد وازورت عنه خالته وما انفكت من تعييره وتقريعه . وانحى به ناحية زوج خالته ليفهم منه السبب فى تركه المدرسة باللين والكلام الهادىء الا انه رفض باديء ان يجيب فالح عليه فافهمه السبب هو كثرة مشاحناتهم معه وتعييره بكل شخص يعرفونه ورجى منه ان يعود الى المدرسة ووعده انه سيوصيهم بتغيير الخطة التي يسلكونها معه ، ووعده بذلك . ووجه اللوم الى امه واختها وافهمها بخطأ الطريقة التي يسلكونها في التوجيه . وعاد عادل الى المدرسة الا انه لم تمض عليه بضعة ايام حتى عادوا الى ما كانوا عليه فامتنع من الذهاب ثانية وترك المدرسة الى غير رجعة .

— ٥ —

نجحت الفتاة في تلك السنة ودخلت الصف الثالث المتوسط ورسب اخوها الصغير في صفه الرابع الا ان رسوبه لم يكن له اهمية بالنسبة الى عادل لانه لايزال صغير السن ولان نظر امه لم يتجه اليه كما كان متجها الى عادل الذي كان امل امه في هذه الحياة بعد ان فقدت كل شيء ، كما وان ليس لنجاح الفتاة او رسوبها شيء سواء نجحت او رسبت فلابد ان يدا ستمتد اليها في يوم طال او قصر وتخطفها كعروس من بينهم ، ففي الساعة التي تولد البنت يعرف الجميع انها ليست ملكاً لهم فلا يرتجون منها نفعا ولا يؤملون خيرا ، وان تعبهم في تربيتها ليذهب سدى اذا تزوجت ، فهم يربونها وينشؤنها ويعهدونها برعايتهم حتى اذا نضجت واكتملت انوثتها ذهبت من بينهم راضين او غير راضين الى احضان الزوج ، تكرس له حياتها وتغرقه بعطفها وحنانها وتكون له ابا واما واختاً وزوجا ، ويكون لها عشيرتها ، وقلما تتذكر اباها اوامها لانها متجهة بكليتها الى زوجها ترعاه والى اطفالها تربيهم .. وهم ان فرحوا بنجاح الفتاة فلانها خيرة

اخوتها ولانها هي الوحيدة التي تطيع كل ما يقال لها وتعمل بكل ما يقولونه لها .

لم يأبه عادل لتركه المدرسة ، ثم انه لم يأبه لنجاح اخته وتفوقها عليه ، فاين له ذلك الفكر ليعلق اهمية تذكر على تركه المدرسة او نجاح اخته ، وكل ما يعلمه انه ترك المدرسة ، وما معنى ذلك ؟ فلتذهب المدرسة الى حيث تذهب وليبق في لعبه ولهوه ، وكل ما يعرفه انه قوي على الوقوف في وجه امه او خالته وانه جبار ان عزم على امر فلا يثنيه عن عزمه تقريع امه وتشهير خالته .. ولم تكن السنة الثانية خيراً من السنة الاولى ، فهو مصر على عدم الذهاب الى المدرسة ، واخيراً وبعد نزاع ورجاء رضي بمواصلة الدرس على شريطة ادخاله الى القسم الداخلي الذي يأكل وينام فيه ، فاجابوه الى طلبه وبذلوا بعض الجهود وادخلوه مدرسة داخلية ، فذهب اليها وبذلك ضمن لنفسه عدم سماع تقريع امه وتوبيخ خالته كما ضمن حريته في دراسته ، يقرأ متى شاء ويكتب متى يريد ، ولا يهمه سخط المعلمون عليه ام رضوا عنه ، وليس لهم عنده اهمية تذكر ، ومضى عليه هناك يوم وثان وثالث وهو فرح بعض الفرح بهذه الحياة الجديدة وان كانت لا تخلو من مشقة ، فكان عليه ان ينهض في الصباح الباكر والظلام لا يزال فيه بقية ليغسل وجهه ويرتدي ملابسة بأسرع وقت لكي يحضر قاعة الطعام ويتناول الفطور مع زملائه وعلى الطلاب في هذا القسم التعجل بتناول الطعام باسرع وقت والا فاز الجرس سيدق

واذا دق فان عليهم ان يتركوا الطعام وان لم ينتهوا منه بعد ، ووجد في هذا التغيير بعض السلوى الا ان الذي كاد يفقده صوابه هو علمه ان في ضمن منهج المدرسة حراثة الارض وقد جاء دوره فناولوه في اليوم الرابع معولا وطلبوا منه ان يحفر ارضاً لا تقل مساحتها عن بضعة امتار ، فامسك المعول وجعل ينظر اليه ، فاين هو والمعاول وحفر الارض ، والمدرسة لا تعفي احداً من حمل المعاول هذه وحفر الارض ، شكا ذلك الى المدير واعتذر الى المدرس الا ان احداً لم يلتفت اليه وبينا هو يعالج حفر الارض وهو لا يدري كيف يمسك المعول لم يشعر الا وصفعة شديدة تهوي على رقبته سقط بعدها هو والمعول على الارض وفي لحظتها انهملت الدموع من عينيه فالتفت ليرى اي غضب هذا الذي نزل عليه فاذا المعلم يكيل له الكلام ويتوعده بشدة لانه لم يحسن الحفر . . فصمم من تلك اللحظة على الهروب مهما كلفه الامر ، وما كاد يوم الخميس يحل — وهو اليوم الذي يسمح لهم بالذهاب الى أهليهم وأقاربهم — فذهب مع من ذهب واعلم امه انه لن يرجع الى المدرسة ثانية .. جحظت عينا الام وماتت الكلمات على شفتيها وطلبت منه ان يفهمها السبب ، فبسط لها كفيه وقد انتفختا وتورمتا ، وسالته عن السبب فارتمى عليها باكياً يجهش بالبكاء ويتمتم بصوت متقطع ..

— المعول .. المعول ..

فرقت له وطلبت منه ان يفصح فاخبرها ان المدرسة تطلب منه

القيام بالحراثة في كل يوم وهو امر لا طاقة لجسده عليه ويتعالى نحيبه ويبح صوته .. ففوضت امرها الى الله وهدأت روعه واعلمته ان ذهابه الى المدرسة هذه لا لزوم له ، وذهبوا عصراً الى بيت خالته وكان ساكناً منكس الرأس فاخبرتهم امه بما آل اليه امر ابنها ولم تزد خالته على ان هزت رأسها وقالت :

أمن هذا ترتجين خيراً ..؟ دعيه ، دعيه وشأنه ، ليذهب حيث يشاء وليكن ما يكون ، حمالا ، او زبالا ، أو شرطياً يؤدى التحية الي كل من كان .. وهو قابع في محله مطرق لم ينبس بحرف ولم يحر بطرف ، وكان مقدراً ان يقولوا له مثل هذا الكلام واكثر منه ، ومضت دقائق والاختان واجمتان ثم انصرفتا الى شرح ما هما عليه فارسلتا الآهات وجذبتا الحسرات ومضى هو الى ابنة خالته يلعب معها ولم يمض عليهما وقت الا وقد سمعتا صراخا يملأ الدار فاسرعتا لترى الذي حدث فاذا بعادل في خصام عنيف مع ابنة خالته .. هو يمسك شعرها بكلتا يديه ويجذبه جذباً وهي تمسك شعره بكلتا يديها وتجره جراً فانهالتا عليهما الاثنين ضرباً وسباً واخيراً جرته امه اليها وأقعدته بجانبها ، وامرت خالته ابنتها ان تذهب لغسل اقداح الشاي التي لم تغسل الى الآن ..

وقالت امه أترين كيف تجري الاقدار معي بالمعاكسة ؟

قالت الخالة : وماذا يعنيك منه اذ لا يجني النتائج غيره هو ، فهو وحده الذي سيعاني ما يعاني بسبب هذه الوقاحة من شظف العيش

وخشونته ومصائب المستقبل وبلاياه

قالت الام — ولكني كأم أفلا يحق لي ان اهتم بمصير ابني ؟ انني اكاد اجن حين اراه دون اولاد الناس من حيث سيرته ومستقبله وانا حين امعن النظر اجدني لا اخلو من التبعة والمسؤولية فانا لو كنت اعني به العناية اللازمة لما آل مصيره الى ما ترين ؟

قالت : ولم لم تعني به العناية اللازمة ؟

قالت الام — أأنا اقدر ولا افعل ؟ ! انني لو كنت اعرف كيف اربيه ولم أفعل لكنت مجرمة

— ١١ —

بات في يقين امه وبات في يقين خالته ، وبات في يقينهم جميعاً، انه لافائدة ترتجى من ذهاب عادل الى المدرسة ، او انهم غسلوا ايديهم منه كما يقولون لانه ولد خامل كسول وقد خيب جميع آمالهم التي كانت معلقة به وبدد جميع احلامهم التي كانوا يحيون في ظلالها واظهر لهم من نفسه صورة مشوهة رأوا فيها القبح والمسخ فأشمأزوا منها وازوروا عنها وكادوا ينكرونها او يتجاهلونها ، لذا فأنهم لم يبدوا اي تمنع او انهم لم ينبسوا باي حرف اجابة بالرضى او عدم الرضى حين سألهم زوج خالته عن رأيهم اذا بذل له بعض الجهد وسعى له في دوائر الحكومة لعله يتمكن من تعيينه موظفاً ، لان المدرسة نفسها ستلفظه بعد ان لفظها هو ولا فائدة من ذهابه اليها وايابه منها سوى ان يسخر منكم ويهزأ من نفسه ، جرى ذلك وهو لم يدر شيئاً عن هذه الجلسة التي عقدت بينهم وقرروا فيها مصيره دون ان يستشيروه في ذلك او يطلبوا رأيه ولو انه كان بينهم لما تردد في ان

يقوم ويقبل زوج خالته ويوافقه على كل حرف وكانت مفأجاة حين اخبره زوج خالته في اليوم الثاني ان يذهب الى دائرة عينها له ويقدم لها طلباً يبدي رغبته فيه بالاشغال عندهم واخبره انه قد تفاهم مع المدير وانما الطلب هذا من باب الرسميات فقط . كان عادل يحملق في وجه خالته وينظر اليه دهشاً يكاد لا يصدق الذي يسمعه وما كاد ينتهي من كلامه ويربت على كتفه حتى مضى لتوه واخرج ورقة وقلما وكتب رغبته في الاشتغال ومضى بها الى الدائرة التي وصفها له زوج خالته وقدم الطلب وبقي ينتظر امر المدير ولم يمض على انتظاره بضع دقائق حتى استدعاه المدير وسأله بعض الاسئلة واعطاه ورقة الى موظف اشاه له ، فشكره وذهب الى الموظف واعطاه الورقة واخبره ان امر تعيينه سيصدر اليوم وعليه ان يأتي في اليوم الثاني للدوام فشكره ثم ودعه وانصرف وما كاد يصل الى باب الغرفة حتى ناداه الموظف يقول :

— لا تنس ان تأتي صباحا .

وهز له رأسه دون ان يجيب واسرع في مشيه تكاد الارض لا تسعه من فرط فرحه وسروره .

— ١٢ —

لا يدري ما هو نوع العمل الذي سيناط به ، ولا يدري ما هو مقدار الراتب الذي سيجرونه له فان ذلك لا يهمه ، بل انه لم يفكر بها مطلقاً ، وكل ما كان يريده هو ان يكون موظفاً ومعنى ذلك انه اصبح رجلا يهاب جانبه لانه سيتناول راتباً في نهاية كل شهر قل أو كثر يستطيع ان يعمل به ما يشاء ، ويستطيع ان يمنح امه شيئاً ولو ضئيلا ويستطيع ان لا يعطها أي شيء ، ولتغضب عليه ان ارادت ما وسعها الغضب ولترضى عنه ان ارادت ما وسعها الرضى فان ذلك لا يهمه بقدر ما يهمه ان يكون في عداد الموظفين ، وحث قدميه الى البيت مسرعاً وهو يكاد يطير من شدة الفرح ، تتسع في صدره الاماني وتزدحم في رأسه التخيلات . . وكان الوقت ظهراً وامه قد عادت من المدرسة وحدها دون اخيه واخته ، وقد اقبل عليها وهو منتفخ الاوداج عالي الصدر وقال متفاخراً . .

— انتهى الامر وقد صرت موظفاً اعتباراً من غد وطلب لي

راتب اتقاضاه فى نهاية كل شهر . .

اسمعي . . لا تفرضي علي من الآن اوامر ولا تسني لي قوانين ولا تقولي اعطني الراتب او تقولي اعطني قسماً منه . . ؟ فاختياري منذ اليوم بيدي ، سأعطيك ان شئت وسـأحرمك ان شئت وهنا سكت لحظة واطرق كأنه يفكر في امر او نسي شيئاً يقوله ، وامه واجمة تنظر اليـه بحزن وتكاد الدموع تنفر من عينيها فارتمى عليها يقبلها ويقول . . لا . انني امزح معك ، ألا تقبلين المزاح . ؟ وهل صدقت ذلك . ؟ انني سأعطيك الراتب كله . . ولتعطي انت ماشئت منه اذا شئت . . وجذبت امه آهة عميقة وتأوهت بحزن وقالت :

— ايه بني . . سيجيء ذلك اليوم الذي تندم فيه وتصفق راحة براحة وتقول : ليتني اكملت درسي . . اجل سيجيء ذلك اليوم يا ولدي . . سيجيء وتعلم ان هذا الراتب الذي سيعطونه لك لايغني ولا يسمن . . وانك لا تدرك الآن شيئاً لانك طفل غر لا تعلم من الحياة غير اللعب واللهو ، فانت في الصبح تتناول فطورك وعند الظهر تأكل غداءك وفي الليل تتعشى ثم تبكي وتصرخ وربما تثور وتسب وتلعن او تشق الثياب وتكسر الاواني اذا لم يعجبك الغـداء لانك لا تعلم ما هو الفقر . . ولا تفهم شيئاً اذا قلت لك انه لاتوجد لدي دراهم فتصرخ وتبكي واذا اردت مني ثوباً وطلبت منك ان تتريث قليلا ربما استدين بعض الدراهم او حالما اتناول هذا الذي يسمونه

الراتب والذي ستعرفه بعد حين واشتري لك .. انك تأبى ذلك وتصر على شراء الثوب حالا وبدون تأخير واذا كنت لا تفهم مما اقول شيئاً فلانك لا تعلم ما هي الحاجة بعد ، فلا يهمك سواء اكان عندي مال او لم يكن وانما الذي يهمك هو ان اشتري لك ثوباً مهما يكن الامر والمثل العامي يقول « يدري الذي يثرد بيده كم رغيفاً ثرد ولا يدري الذي يأكل » ولا استطيع ان افهمك المثل هذا لانك لا تستطيع ان تفهمه .. وانما اقول لك انه سيجيء ذلك اليوم وتعلم ان الحياة ليست سهلة كما تظنها الآن ولا امرها هين وان الايام قاسية عنيفة جبارة لا ترحم ولا تلين .. وفي هذه الاثناء دخلت اخته واعقبها اخوه الصغير فربتت على كتفه وقالت : اذهب واقعد على المائدة ريثما اعد لكم الطعام .. فانتبه الى نفسه فجأة وكأنه كان غارقاً في لجج من الاوهام وحاول ان يتكلم الا انها طلبت اليه ازيذهب الى المائدة ويقعد مع اخويه وانتهت امهم من اعداد الغداء واتت به ووضعته امامهم وقالت :

— يالله .. كلوا ..

ومضوا يأكلون جميعاً ، البنت تأكل في سكون وهدوء ، والام تأكل فى وجوم وحزن ، واخوه يأكل كيفما يريد ازيأكل لايدري ما حوله ولا يعبأ بما يحدث يضع رغيف الخبز في فمه ويصر عليه باسنانه ثم يجذبه جذباً ويضعه على المائدة بعد ان يقضم منه شيئاً ويتناول

بعده ما شاء من الرز والمرق . . اما هو فقد بدأ يأكل قليلا قليلا وقد عافت نفسه الطعام وفي كل لحظة يريدان يكلمها ولكن لايدري عن أي شيء يتكلم

انتهوا من الغداء وحان وقت رجوعهم الى مدارسهم . وطلبت من اخويه ان يسرعا في احضار كتبها فلبيا طلبها وذهبا الى المدرسة ومضت هي الى عباءتها فارتدتها واوصته ان يلازم الدار ريثما يعودون وان يكون عاقلا فوعدها بذلك واحكم رتاج الباب خلفها وصعد الى السطح يلعب هناك فانه قد اعتزم من الان ان يطيع امه ولا يؤذيها بعد اليوم وقد عزم عزما اكيداً على الدوام في المدرسة في السنة القادمة حيث لم تبق من السنة الدراسية هذه الا اقلها وانه سيقرأ ويقرأ ويحضر كل مايطلب منه . وتناول حجراً من الارض ورسم فيه مستطيلا ثم شطره من الوسط بخط يقسم المستطيل الى نصفين ثم قسمه الى ست مربعات وتناول حجراً مسطحاً بعض الشيء ووضعه في المربع الاول واثنى رجله اليسرى وصار يضرب الحجر برجله اليمنى منتقلا به من مربع الى مربع متحاشياً ان يمس الخطوط التي رسمها ويبسط رجله في المربع الثالث ليستريح قليلا ثم يثنيها مرة اخرى ويضرب الحجر ثانية الى المربع الرابع ثم الخامس ثم السادس ويضربه بعد ذلك ضربة قوية يرفعه بعنف الى الخارج ويثب هو على رجليه ليبدأ اللعب من جديد .

وهي لعبة تعرف باسماء مختلفة يسميها سكان الجنوب (بجير بحاش) ويسميها بعض المدن (بالمحلقو) وغير ذلك من الاسماء . . لعبة تصلح ان يلعبها اللاعب بنفسه دون اللجوء الى مساهمة الآخرين معه وهكذا صمم عادل على ان يلعب مع نفسه لانه اراد ان يكون هادئاً مطواعاً من جهة ولانه صار موظفاً فلا يحسن من موظف ان يستهتر وأن يلعب بمشهد من الناس .

— ١٣ —

مضى الشهر وحل موعد اعطاء الراتب: وتناول عادل راتبه الذي لا يعدو عن بضعة دنانير . واصرها في يده ثم دسها في جيبه بكل عناية وحذر خوف الضياع ، كيف لا وهو طيلة حياته لم يمسك بيده ديناراً واحداً فضلا عن بضعة دنانير وكلها تعود له ، وفكر طويلا في كيفية انفاق هذه الدنانير ، ماذا يشتري بها وكم يعطي الى امه وكم يبقى منها لمصروفه اليومي ، وفكر اول ما فكر في شراء بدلة جديدة له على ان يعطي قسما من الباقي الى امه ويبقى القسم الآخر له . . وارسل نظرة الى ملابسه فأكدت له نظراته بانها عتيقة بالية وليس من المناسب ان يمضي في لبسها وهو موظف على كل حال مهما كان نوع وظيفته . وعزم عزما اكيدا على ان يشتري له ملابس جديدة مهما كلفه الامر ، وان يشتريها حال خروجه من الدائرة ، وانه مايكاد يخرج من الدائرة الاويمم السوق رأساً ودخل احدى المخازن المعروض فيها بعض الملابس الجاهزة وطلب من البائع ان يجد له بدلة

تلابسه ، ولبس السترة ووقف امام المرآة ينظر اليها مرة والى نفسه اخرى فوجدها صالحة له ، وان الفرق شاسع بين مظهره وهو بتلك السترة البالية وهذه السترة الجديدة واكد له البائع ذلك ، فساله عن الثمن فاخبره انه لايزيد عن الدينارين ، لم يساوم في الثمن . بل انه لم يدر بخلده ان يساوم لانه يعلم ان المساومة تكون مع اصحاب الدكاكين الصغار وفي الحاجيات التي لايزيد ثمنها عن الدرهم فينقصه فلساً او فلسين ، واما مثل هذه المخازن واقل حاجة فيها ـ باعتقاده ـ تزيدعن الدينارين فلا تصح المساومة فيها بل انها غير موجودة اصلا ، وكل اعتقاده ان الذي يحاول المساومة لابد وان ياخذوا منه الحاجة التي ينوي شراءها ويصرفوه من المخزن صرفا . وطلب من البائع ان يلف له الملابس بقطعة من الورق وانقده الثمن وذهب مسرعا الى البيت ووجد امه واخويه ملتفين حول المائدة وليس امامهم الغداء وقد جلسوا ينتظرونه ودخل اليهم جذلاناً فرحاً وقد نشر الملابس يعرضها على امه ويقول لها . .

— انظري .. كم هي جميلة .. كم هي ثمينة ، اتعلمين بكم ؟ لقداشتريتها بدينارين ، واعطيت درهماً الى الصانع ، مسكين انه كان ينظر الي كما ينظر الشحاذ الى الغني فرق قلبي عليه واعطيته درهماً . . آه لو تعلمين كم شكرني . . ثم انه اوصلني الى الباب . . وسكت لحظة ثم دس يده في جيبه واخرج منه ثلاثة دنانير ومد يده

بها الى امه وقال :

— هذا لك .. ألا يكفيك ذلك ؟ اقسم انه لم يبق لي غير دينار واحد وبضعة دراهم لاني اعطيت الى كل فراش خمسة دراهم لانهم هنؤني بالوظيفة وطلبوا مني ذلك

كل هذا وكانت امه تنظر اليه نظرات لا تخلو من عطف ولا تخلو من خيبة ، فاين هو وهذه البضعة دنانير وبين الآمال الكبار التي كانت تعلقها عليه ، والامنيات التي كانت تعلل نفسها حين يتقدم ولدها ويصبح رجلا ، ليعوض عن هذا الجهد الكبير الذي تبذله له ولاخويه ولكن قضي الامر وخاب الرجاء وانهارت الآمال وتبددت الامنيات ، وعزت ذلك الى سوء طالعها وحده فهو الذي رسم الطريق هذه الى ابنها ودله عليها لتعاني طيلة حياتها من الضنك والالم ماتعاني وقد كتب عليها ان تقاسي كل أصناف الشقاء وليس لاحد يد لمحو ما هو مقدر للانسان ، ولو انه كان مكتوباً عليها السعادة والفرح لما دفع زوجها عمر افندي الى ازهاق روحه بيده ، بل لما جاء الطبيب نفسه الى تلك البلدة فيفكر في اجراء عملية وتقديم نفسه ضحية لها ولما غير ابنها الطريق وقذف بنفسه الى معترك الحياة وهو لما يزل زغباً ليظل طيلة حياته يعاني البؤس ويقاسي الشقاء ، وكانت تحنو عليه وتعطف مهما حدث من امر لانه ولدها وقطعة من فؤادها حملته في احشائها تسعة اشهر وعانت ماعانت من الآم الوضع وصعوبة الولادة

ولانه كان فرحة ابيه الاولى كما قال لها مرة وهي طريحة الفراش ـ انه لم يفرح طيلة حياته فرحا يعادل الفرح الذي هو فيه حين تأكد انه ولد ـ ولانه كان حبيب جدته ومعشوقها لان الله قد امات جميع اولادها وهم في المهد ولانه الولد الوحيد الذي سبقت به ابنتها اخواتها الثلاث ، ولانه كان املها الضاحك ذات يوم . ومن يدري فلعل الآية تقلب ويوفر لها الراحة بطريق غير طريق المدرسة ، ومن يدري ايضاً لعله يبلغ شأواً كبيراً في الحياة ويصبح ذا جاه وهيبة ومن يستطيع ان يدرك الذي سيحدث في المستقبل ، بل من يستطيع ان يقرأ المخبوء الذي رسم في صدر الغيب فتناولت منه الدنانير الثلاثة وطلبت منه ان يضع ملابسه في الحجرة ويأتي ليتناول غداءه وقامت هي لتأتي بالطعام وانتهوا منه وطلبت منهم ان يهيئوا انفسهم ليذهبوا جميعاً لعيادة خالتهم في المستشفى لان تسعة اشهر قد مضت على حملها وآثرت الولادة في المستشفى على البيت للعناية الفائقة التي تبذلها الممرضات هناك . ولان اسباب الراحة متوفرة اكثر مما هي في في البيت وانه كان يعلم ان خالته كانت على وشك الوضع الا انه ما كان يعلم انها دخلت المستشفى لتضع هناك. وانتهوا جميعاً من ارتداء ملابسهم وانتهى هو من لبس بدلته الجديدة وارسل اليها نظراته يتفحصها جيداً واقبل على اخويه يستفسر منهما الراي فيها اما اخوه الصغير فقد يمم نحو امه وقال لها متوسلا .

—ماما . متى تشترين لي انا الاخر بدلة جديدة كهذه . فاجابته بانها ستشتري له واحدة مثلها قريبا . واما اخته فقد وافقته على الفور وذهبوا جميعاً الى المستشفى .

— ١٤ —

تتابعت الايام ومضت اسابيع وانصرمت اشهر ، وعادل مكب على عمله . يذهب في الصباح ويجيء العصر وهو راض بعض الرضى عن عمله ، قانع بعض القناعة بالراتب الذي يتناوله وهو على قلته كان يسد حاجته ولا يفوت عليه شهر دون ان يشتري له شيئاً جديداً ويعطي الى امه نصف راتبه وربما جاد على اخيه او اخته واشترى لهما بعض الشيء ، ونجحت اخته فى تلك السنة وبذلك اكملت الدراسة المتوسطة ونجح اخوه ايضا وصار فى الصف السادس وفرحت الام بنجاحها وقد عاودها بعض الامل وبدأت خيوط من الاماني تداعب خيالها نحو ولدها الثاني . واذا كان رجاؤها قد مات في ولدها الاول فان الرجاء كله او بعض الرجاء بدأت تنتظر تحقيقه في ولدها الثاني وان سنة اخرى تمضي عليه لينهى دراسته الابتدائية ثم انه لم يزل صغير السن فليس ببعيد ان يحقق لها رجاءها ، ونظر عادل الى اخويه وكل واحد منهما يطفح على وجهه البشر وتفيض نفسه بالفرح . اخوه

يملي ارادته على امه ويطلب منها ان تبر بوعدها وتشتري له ساعة كما وعدته اذا نجح . واخته تتوسل الى امها بان تشتري لها ثوبا كالذي ترتديه صـــديقتها التي جاءت معها امس وامه تعدها بذلك راضية طوراً وبرمة اخرى وتطلب منها ان ينصرفا ريثما تهدأ وتفكر . ينظر عادل الى كل هذا وانه ليتمنى اليوم لواستمر هو ايضاً في الدراسة لتكون له هذه الدالة على امه كما هي لأخويه على الاقل . ويجذب الحسرة تلو الحسرة ولكن بدون طائل .

فعزم عزما اكيداً وقرر ان يعود الى المدرسة حالما تنتهي العطلة الصيفية فان المجال لا يزال متسعاً كل الاتساع ، فهو بوسعه ان يعود الى المدرسة ثانية وبوسعه ان يعود الى القراءة والـكتابة وبوسعه النجاح اذا استمر على القراءة والـكتابة .. اما السنتان اللتان ذهبتا منه ، فلتذهبا الى حيث .. وليبدأ من جديد ولا ضير اذا هو انهى دراسته بعد سنتين من انهاء اترابه لها .. وأقبل على امه والابتسامة تحكم مكانهـا من شـفتيه وقال لها والفرح يكاد يخرج مع صوته :

— امي .. ماقولك .. انني ايضا سأرجع الى المدرسة ؟ ولن انقطع عنها ابداً ..

فابتسمت وقالت :

— يهديك الله يا ولدي .. قالت ذلك ولم تزد

وسرعان ما انتهت العطلة وعادل ثابت العزم متوقد الرغبة . . وذهبوا عصر يوم الى بيت خالته كما اعتادوا ان يذهبوا بين الحين والآخر، واخبرت امه اختها بعزم عادل على الذهاب الى المدرسة ثانية ، فاتسعت حدقتا عينيها واربد وجهها وقالت :

— ماذا ؟.. ايرجع عادل الى المدرسة ! ! والتفتت اليه تقول :

الظاهر انك تريد ان تضيع الوظيفة من يديك في هذه المرة كما ضيعت سنتين ذهبتا من عمرك بدون جدوى ، والآن تريد ان تضيع الوظيفة حقاً ، ألا يكفيك اللعب طيلة هذه المدة من حياتك . . ؟ ألا تزال تعد نفسك صغيراً . .؟ ها هما شارباك قد نجما واصبح لهما ظل على شفتيك وهاهو صوتك قد اخشوشن ..؟ ومعنى ذلك انك اصبحت رجلا . . ومعنى ذلك أيضاً انك تستطيع ان تنجب اطفالا اذا تزوجت فصعد الدم الى وجهه وأطرق يضحك خجلا . . فضحكت امه وضحكوا جميعاً ، وراحت تواصل قولها وهي لا تستطيع ان تمنع ضحكها وتقول :

— لا تضحكوا أهو كذب هذا الذي قلته ..؟

فرفع هو بصره وكان الدم لا يزال يصبغ وجنتيه وقال متلعثما ..

— ولكنني عزمت على مواصلة الدراسة . . فردت عليه تقول:

— اذا كنت حقاً صادقا في عزمك ، ثابتاً في ارادتك فيمكنك

ان تستمر في الوظيفة وتدرس ايضاً فتربح بذلك الاثنين .. الوظيفة والمدرسة . .

فنظر اليها مستفهماً ، فقالت :

— يمكنك ان تذهب الى عملك صباحاً وتذهب الى المدرسة ليلا .. هذا اذا كانت لك رغبة اكيدة في الدراسة ، والا فلا تتعب نفسك وتضيع الاثنين من يديك . . ومن منا يريد لك الشر ..؟ وهل تظن اننا نفرح اذا اصبحت مشرداً وبلا عمل في الطرقات ، وكنا نعلق عليك آمالا جساماً ولكن .. وهنا جذبت الخالة حسرة عميقة وسكتت . . فعقد الصمت لسانه وتكلمت امه وايدت ما قالته خالته واعادت بعض ما قالته ايضاً .. وقالت :

— ويمكنك ان تحضر واجباتك وتقرأ في محل عملك في اوقات الفراغ فتستفيد من ذلك . . فاجابهم عادل بالايجاب وقال انه ليس لديه اي مانع من ذلك لان رغبته في الدراسة تنمو يوما بعدم يوم وان ارادته لتقوى في كل ساعة وقد صار له عزم لا يثنى ، فتلقى الجميع رغبته تلك بالاستحسان . .

— ١٥ —

ذهب عادل الى المدرسة وبدأ يداوم كما كان مقرراً ، ثابت العزم قوي الارادة يذهب صباحا الى محل عمله ويأتي ظهراً الى البيت ليتغدي ويرتاح قليلا ثم يذهب الى المدرسة ويمضي فيها ثلاث ساعات ويعود منها ، ولا ينام الا بعد ان ينهي كل واجباته . فلا عجب اذا كان يحصل على درجات عالية فيأتي بها الى امه ليريها اياها وليبرهن على ايفائه العهد الذي قطعه على نفسه ، ويحتفظ بالدرجات ليريها خالته عند زيارتهم اياها ، ولا عجب من نجاحه في امتحان نصف السنة فقد سمع من عبارات التشجيع الشيء الكثير وقد بدأت امه تعلق عليه بعض الامال من جديد وسرعان ماتغلغلت في نفسها وامتزجت مع مخيلتها ، واكثروا من الذهاب الى بيت خالته . وقلما يمضي يوم اذا لم يذهبوا اليها . وقد بدأ الهدوء يسوء لعب الاولاد في الايام الاخيرة وقد ترك عادل مشاحناته مع ابنة خالته وصار يعنف اخاه اذا رآه يشذ او يميل الى اذى اخته او ابنة خالته .

وبدأ عادل يلحظ في الايام الاخيرة شيئاً لم يالفه من قبل ويسمع كلاما يدور بين امه وخالته واخته ، وانهم يختلون بانفسهم وتطول الخلوة بهم . لايدري لماذا ؟ ولا يفهم شيئاً مما يقولون اوانهم لم يسترق السمع اليهم ، ويحسب انهم يتحدثون كما يتحدثون في سائر الايام . كل واحدة تبث شكواها من الايام الى الاخرى فيتأففن ويتحسران اولا ثم يتضاحكان ويتعالى ضحكها فيما بعد وبدأ يلحظ السهوم في وجه امه فهي ابداً ساهمة مطرقة لاتنتبه الى نفسها الى بعد ان يمد احدهم يده اليها ليستلفت نظرها فتنظر نظرات متحيرة غريبة لم يالفها من قبل ومع ذلك فهي حين تكون في بيت خالته يبدأ الهمس فيما بينها وبين خالته ويسودها شيء من النشاط ولكنه حماس يدع وجه امه مربداً مرة ومنبسطاً اخرى ، وتطرق ساهمة مفكرة طورا وتتكلم جادة متحمسة طورا آخر . ولحظ ايضاً ان لفظة زواج تتردد بينها وان مبلغاً من المال يتنقل في كلامها ، وادرك انهم يتكلمون في امر هام جدا والا لما استحوذ عليهم كل هذا الجد فيما يقولون . والا لما طال بهم الجدال الذي لاينتهي الا ليعاد في اليوم الثاني . فجد في الانصات اليهم وحرص على ان يفهم ما يتفوهون به حتى علم ان الامر يدور حول اخته ، وان احدا تقدم بالخطوبة اليها ، وانه ينوي الاقتران بها في الشهر القادم ولكنه يشترط عليهم شرطا قويا ويفرض عليهم امراً لا ينثني عنه ولا يحيد .. وهو انه يطلب من امه

ان تعتزل الوظيفة وتصحب اخته واخاه بعد الزواج الى محل عمله خارج بغداد ، وعلم عادل ان منشأ تردد الام والوجوم قد كان بسبب اعتزالها الوظيفة وذهابها بصحبة اخيه مع ابنتها .. فمن يضمن ان زوج ابنتها سيقوم باعاشتهم الى النهاية .. ثم ان ولدها عادل . . اين تتركه .. والى من تعهد به ..؟ وكان يسمع ان خالته تقول لامه عليها ان لاتفكر بعادل لان عادلا اصبح رجلا وهو يستطيع اعاشة نفسه اذا ما اعين قليلا ، ثم انه يجب ان لاتفسد هذا الزواج بالمماطلة والتفكير .. وعقد اجتماع ضمهم جميعا ، وكان زوج خالته يتصدره ودار النقاش عن امر الزواج هذا وقرروا انه يجب ان يتم .

اما عادل ، فانه قد ثار وهاج وبكى .. فعابوا عليه ذلك ، وانهالوا عليه جميعاً بالثناء المطرب والمديح الكاذب ، ونسبوا اليه الرجولة الكاملة وانه غدا لايخشى عليه ، والرجل يستطيع ان يعيش في اي مكان كان بمفرده او مع اهله .. لا يهمه ذلك ، لانه رجل ومن العار على الرجل ان لا يعطي الرجولة حقها اذا لم يتسع صدره للحياة يناضل ويكافح ، ويجهد ويتعب ، يحزن ويفرح ، ولم يسموه رجلا اذا كان لايداري آلامه ويصرفها عنه بكل شجاعة ، ويتحمل المصائب ويثبت أمام الرزايا ، والا فان البنت خير منه ، او انه لا يوجد اي فرق بينه وبين الفتاة الا بالتكوين .. ثناء متلاحق . وتشجيع مطرد . وقالوا انه اذا عاكس في الخطوبة اومانع ، فانما يفعل ذلك لانه لايحب اخته

والذي لايحب اخته لايحب اهله وأقاربه جميعاً ، ولايهمه بعد ذلك اذا اسيء الى اسم اخته اذا ذهب الزوج عنها لانه يريد لها الشر ولا يحب الخير، والذي يحب اخته ويحب اهله يضحي بكل شيء في سبيلهم. قالوا ذلك كله وقالوا اكثر من ذلك وكلما قالوا انه يتعمد الاساءة الى اخته منعهم من الفوه به ، ويفهمهم ان الذي يقوله هو صعوبة الحياة التي سيلاقيها وهو لم يعتد بعد فراق امه او اهله . فمن الذي سيغسل له ، ومن يطهي غداءه ومن ينظف الدار ، واين يأكل .. وكيف ينام بمفرده في هذه الدار الخاوية .. كيف يستطيع ان يعمل هذا كله بمفرده وهم كما يعهدونه لايحسن القيام بشيء وقد اعتاد ان ينهض في الصباح ليرى كل شيء جاهزا ، ويأتي الظهر ليجد غداءه مهيئا . واذا توسخ ثوبه فما عليه الا ان يرمي به جانباً ليجده نظيفا في اليوم الثاني . ولكن القوم سمعوا منه هذا فلم يعطوه اي اهمية تذكر ، بل انهم افهموه انهم سيتركون له العجوز الخادم التي تتردد عليهم بين حين وآخر لتعمل له مايحتاج اليه ولا عذر له بعد ذلك . وكلما حاول ان يقول شيئاً صرخوا في وجهه وقالوا : « انك لاتريد الخير لاختك » صمت عادل وآثر السكوت وهو لايستطيع ان يتصور كيف يمكنه البقاء بمفرده وهو لايزال غراً ليس له من التجارب شيء بل انه لايستطيع ان يتصور كيف ان امه ستتخلى عنه وتذهب وكانه ليس ابنها ، بل كيف تأمن على تركه بمفرده وهو في سنه هذه . الاتخاف عليه من الاشرار المنبثين هنا وهنالك ولا يخلو منهم مكان . الاتخاف ان يجرفه

هذا التيار الزاخر القوي المملوء بالفسق والفجور والرذيلة الذي يجتاح العاصمة الآن . ويذهب مع من يذهب ضحية الطيش وهو في هذه السن النضره والشباب الرقيق والعاطفة التي تحتدم في نفسه وتفور الأخشى عليه الجنون ، انه لايستطيع ان يتصور ذلك . وان عقله يكاد يقف ويابى المضي فى التفكير . بل اين له تلك العقلية ليفكر بهذا كله . انه فكر اول ما فكر في تهيئة طعامه وغسل ملابسه وقد أمنوا له ذلك فماذا يريد بعد

فرضخ وأذعن والله يعلم انه كان يبكي في كل لحظة يخلو بها مع نفسه ولم لا يبكي . . ازامه ستتخلى عنه بهذه السرعة وتذهب وكأنه لم يكن وكأنها لم تكن وهب انها تستطيع نسيانه فكيف يستطيع هو ان ينساها ويحتمل فراقها ومهما يكن فان الخطوبه اعلنت والشهر مضى والقران تم وحل يوم سفرهم جميعا

تركوا له نصف المتاع الذي كان يعود الى ابيه لقد تركوا له من الفراش والاغطية الشيء الكثير وتركوا له ماشاء من الاواني والقدور والملاعق والسكاكين وغير ذلك مما يفيض عن حاجة ثلاثة انفار . .

وحان وقت سفرهم وكان يشرق بدمعه ويجهش ، وعبثاً يحاول ان يمنع البكاء وكانت امه تشرق بدمعها وتجهش ايضاً وعبثاً تحاول ان تمنع بكاءها وكانت خالته تبتسم ، وكان زوج اخته يشجعه ويحثه على التجلد وكان زوج خالته صامتاً ينظر اليهم ويتكلم نزراً وكانت ابنة خالته تعيب عليه بكاءه وتتهمه بالضعف لانه رجل والرجل لايبكي

لقد قبل بعضهم البعض ، وتوادعوا فيما بينهم ، واقبلت عليه امه لتقبله قبلتها الاخيرة فهرب من امامها وأحاط وجهه بذراعه واتجه الى الحائط وجعل يبكي بكاء مراً ، بكاء يذيب الاكباد ويحرق النفس فقبلته امه من رأسه وتوسلت اليه ان يكفكف دمعه ووعدته بعودتها اليه ريثما تستقر اخته هناك ، ونفخ سائق السيارة بوقه يعلن الاسراع وطلب اليهم زوج اخته ان يعجلوا وطلب من زوجه ان تذهب الى السيارة فاذعنت ونحت الى اخيها وقبلته والدموع تتألق في مآقيها وقبلته امه ايضا وقبله اخوه وودعه زوج اخته وقبله أيضاً وانتضموا في السيارة ونفخ السائق ليخلي له الصبية الطريق وسارت السيارة تحملهم جميعا وبدأت تسرع شيئا فشيئاً وهم يلوحون لها بايديهم حتى جدت في السير واخذت تطوي بهم الطريق طياً

— ١٦ —

واخذته خالته الى بيتها وهي تحاول جهدها التخفيف عنه بالكلام الهادىء والحديث المضحك لتمنع عنه البكاء الذي لازمه والنحيب المتواصل وهو ما يكاد يهدأ حتى يعود الى البكاء ثانية ، وراح كلما يفكر في تخلي امه عنه وغربته يجن جنونه ويجهش بالبكاء ونام في تلك الليلة عند خالته وحين لاح الفجر وتسللت خيوط الشمس الواهية الضعيفة الى الحجرة التي ينام فيها ، وهبت العصافير والعنادل من وكناتها تشقشق وتغرد على فروع الاشجار المتدلية على شباك الحجرة فتح عادل عينيه متثاقلا وادار رأسه يتفحص الحجرة بنظراته ثم نهض من الفراش ودلف الى النافذة وفتحها واستنشق نسيم الصبح المشبع بالندى المفعم بأريج مختلف الازهار والرياحين ، فانتشى لذلك وهدأ قليلا ، وارسل نظره يتملى فروع الاوراد واصص الازهار ، تداعبها النسمات الخفيفة فتميلها شمالا وتثنيها يمينا فتبعث في النفس البهجة وتفيض في القلب الحبور ثم مضى بعد ذلك وحيام جميعا

وارتدى ملابسه وجلس يتناول فطوره ، ثم قام ليذهب ، فطلبوا منه ان يحضر الغداء على مائدتهم في هذا اليوم واخبروه بانهم لن يتغدوا اذا لم يأتهم وما زالوا به حتى وعدهم بذلك وانصرف ..

ومضت أيام وعادل يلاقي ما يلاقي من الوحشة والحزن .. فكان عليه أن يستيقظ والشمس لما تزل في خدرها ليوقد النار ويضع آنية الشاي عليها ثم يمضي الى السوق ويأتي بالخبز والبيض او الجبن او ما شاكل ليكون فطوره .. وما ينتهي منه الا ويكون وقت عمله قد حان فيذهب مسرعا . وما يكاد يخرج ظهراً الا ويمضي باحثاً عن مطعم يتناول غداءه فيه ، أو يشتري له ما يتيسر ويحمله معه الى البيت ثم يذهب الى المدرسة ليبقى فيها ثلاث ساعات ويخرج ليفتش عن عشاء له وكثيرا ما كان يبيت على الطوى لضيق ذات اليد وعدم تمكنه من شراء اي شيء وكان قلما يمضي عليه يوم دون ان يبكي ويسترسل في البكاء

ذهبت امه وتخلى عنه الجميع وغدا فريداً غريبا يقاسي البؤس ويتجرع الشقاء ذهبت وتركته في خضم هذه الحياة الهائج المائج لا يدري ما يعمل ولا يدري الى اين يذهب ولا الى أي وجه ينحو وصار يتخبط في عمله تخبط الطفل او تخبط المجنون فهو لا يأتي الى البيت مساء الا وتنقبض نفسه وتستحوذ عليه الآلام ويركبه الحزن ويرى الوحشة مجسمة في هذه الدار الخاوية الا منه ويرى

الكآبة تتراقص في فضائها والاشباح تلوح وتختفي فيرتمي على سريره ويحجب الدار عنه جميعا بكتاب ينشره امام عينيه ، او يغرق نفسه في الفراش ويسحب الغطاء الى رأسه ويبكى واصبحت حياته جحيما تقذف المظى والحمم في وجهه وينفث دخانا حالكا يعمي بصيرته فسئم نفسه وسئم الحياة كلها ، ونظر اليها نظرة قاتمة عبوساً . . ولا عجب اذا ترك المدرسة ورفض الذهاب اليها . . او قل لا عجب اذا سئمها فاين هو الفكر الذي يستوعب القراءة ، واين الروح التي تحبب اليه الكتابة . . يقعد في محل عمله ويفكر اي شيء سيكون غداؤه . . ومن اين يستدين في هذا اليوم .؟لينفقه على طعامه . . أما في المدرسة ففكره في عشائه وماذا سيكون الفطور ومن اين يأتي به . . ويغرق في التفكير ويطول به الاطراق فيلحظ عليه المعلم ذلك ويستدعيه للقراءة فيهب واقفاً لم يحر جواباً ، فيضحك منه الطلاب ويعنفه المعلم . . وتكرر اطراقه في المدرسة وسهومه في اثناء التقرير وتكرر ضحك الطلاب منه وتعنيف المدرس له وتقريعه بما يحضر في لسانه من ألفاظ وتدهور في دروسه في الشهر الاول بعد نصف السنة وتركها في الشهر الثاني . . وعادت الخالة الى تقريعه ومؤاخذته على الانقطاع من المدرسة وعبثاً حاول ان يفهمها السبب ويشرح لها سر سأمه . . ومن يستطيع ان يفهم ما يقول عادل وهو لم يقاس ما قاسى ولم يدر بالذي يعاني . . وكيف يستطيعون ان يحكموا عليه ولم يمر على أحد بعض

الذي سرّ به حتى اذا يئسوا منه تركوه وكفوا عن الكلام بشأن المدرسة .. الا انهم كانوا يعطفون عليه بعض العطف . ويولونه بعض العناية لا يدري أهي شفقة منهم لانه غدا غريباً وهو لما يزل في ريعان الصبا وفورة الشباب .. أم هو عطف حقيقي صادر عن قلب عامر بالحب وكيفما كان الامر فقد كان يجد بعض الراحة عندهم ، لانه كان يستشعر في ذلك العطف شيئاً من عطف الام وحنوها .. فكان يذهب الى بيت خالته بين الحين والآخر ويمضي معهم ردحاً من الوقت ينفس قليلا عن نفسه ويزيح بعض آلامه . . وكثيراً ما كانوا يطلبون منه المبيت عندهم فيعتذر لهم ويلحون عليه فيرضخ . . وكثيراً ما كان يمتنع ويصر على امتناعه فيغلقون عليه الباب ويمنعونه من الخروج فيبيت على رغم ارادته . . وهو بالرغم من انه كان يلحظ منهم بعض العطف الا انه كان يتألم كثيراً اذا شعر باحد يرثي له أو يشفق عليه لانه يعلم ان الشفقة هي من مشتقات الاحتقار ، وقد كان يميز بين العطف والرثاء ولكنه لتبلبل افكاره واختلاط مزاجه لا يستطيع ان يميز بين العطف الحقيقي والعطف الزائف .. وكانت الخواطر تتضارب في رأسه في ادراك كنه العطف الذي تسبغه الخالة عليه ، أهو عطف خالص ام شفقة مشوبة برثاء .. لذا فانه كان يقتصد في تدلله عليهم ويبدي لهم من الاعتزاز بنفسه اكثر مما يجب .. وكان يجد بعض عناية خاصة من ابنة خالته ، فهي ما تنفك حين يأتي تقدم له الشاي

والقهوة او تخصـــه ببعض الشيء ، وكانت تلح عليه كثيراً بالمبيت عندهم .. وهي التي كانت تغلق الباب وتخبيء المفتاح عن عينيه ، وهي التي كانت تفرش له الفراش وتأتي له بالغطـاء ثم تطلب منـه ان ينام لتغطيه هي .. وكان يتعقبها بنظراته ولا يحولها عنها الا بعد ان تغيب من امام ناظريه ، وكثيراً ما كان الكلام يخونه اذا كلمته هي أو حاول ان يكلمها هو .. فيتلعثم في كلامه وتحمر وجنتاه خجلا وصار لا يذهب عنهم الا ليفكر في اي وقت يجب العودة اليهم وصار حين يؤم بيت الخالة لا يشغل ذهنه وهو في الطريق غير ابنة خالته كيف سيقابلها ؟ وما الذي ستقوله له وما الذي سيقوله هو .. حتى استحوذت على كل تفكيره وتغلغلت في شعاب قلبه وهناك ادرك انه بدأ يحبها وان قلبه يهفو اليها .. وكلما اطلق لتفكيره العنان ليحلق في سماء نفسه شعر ان الحب هذا لم يكن وليد لحظة او ساعة او يوم ، وانما يرجع عهده الى ايام الصبا وعهد الطفولة .. يوم كانا يلعبان سوية فيتخاصمان ويتشاحنان ، وانه كان ينمو معها ويترعرع ، واذا كانت الطفولة تحول بينه وبين تفهم هذا الحب والافصاح عنه فها هو ذا الحب الآن يتجسم ويفصح ويقرب الالفة بينها بحنين احدهما الى الآخر .. ومضت الايام سراعاً وعادل يكثر من مجيئه اليهم يوماً بعد يوم ، وما عاد يمتنع اذا طلبوا منه المبيت أو يعتذر من تناول الطعام .. فكان يطيـل النظر اليها وهي تطيل النظر اليه ولا شيء غير ذلك .. وكان يقتصد في كلامه

اليها ويتحاشى من مخاطبتها امام امها او ذويها ، واذا هي حاولت ان تكلمه امام امها لاذ بالصمت او يدير الحديث مخاطبا امها ، لانه كان يخيل اليه ان امها ترقب حركاته وتنظر اليه بين الحين والآخر تعمداً لظنه انها تعلم ما يضمره نحو ابنتها .. ويخيل اليه ايضاً ان الكل يعلم ما يضمر اوانه يخاف ان يعلم الكل ذلك ..

وذهب اليهم عصر يوم فالفاها واقفة لدى الباب بصحبة اخوتها فاقبل اليها مسرعاً يتطلق وجهه فرحاً وبشراً ، ترتسم على شفتيه ابتسامة رقيقة عذبة تفصح عن بعض مايخفي ويكتم من شوق وحب لقد اقبل عليها يحييها فرفعت يدها وضربته ضربة خفيفة رقيقة لطيفة على خده الايمن ترد عليه التحية ، فصعد الدم الى وجهه وتوردت وجنتاه بالدم القاني فزاد من ابتسامته لها ثم دخل .. وعلم انه لا يوجد احد غيرها وغير اخوتها وان ابويها في زيارة بعض الاصدقاء .. ووقف بجانبها ينظر اليها وتنظر اليه ويبتسم احدهما الى الآخر ويمضيان في حديث متشعب ، هو يكلمها عن نادرة وقعت له .. وهي تكلمه عن اخوتها و كثرة مشاحناتهم .. وابطأ مجيء خالته وزوجها فطلبت منه البقاء فاعتذر بوجود بعض الاعمال .. والله يعلم ان اي عمل لم يكن لديه وانما كان خوفاً من مجيء خالته وزوجها لئلا يجداه هناك ويسيئا به الظن ، في انهما لا يفكران مطلقاً بان عادلا يمكن ان يجرأ على التفكير في ابنتهما .. والحب هكذا ، يظن بل يعتقد ان حبه

مفضوح وسره شائع وان لم يعلم احد بشيء من امره .. وكل نظرة توجه اليه يحملها على غير قصدها ويفسرها بغير معناها ، لذلك كان يخشى عادل ان يكون امره مفضوحاً لدى خالته وزوجها وحين ألح على الذهاب ألحت هي عليه بالبقاء فاعتذر وانصرف وان الارض تكاد لاتسعه لفرط فرحة وسروره في تلك الامسية

— ١٧ —

عجلت الايام تدور بسرعة طوراً وبيطء طوراً آخر وتمر على عادل ايام واسابيع واشهر وهو يزداد في كل يوم حباً لها وتفكيراً بها ، حتى شعر ان روحه قد امتزجت بروحها وانها ملات كل قلبه واستحوذت على كل تفكيره وانسابت في دمه حتى لقد اصبحت قطعة منه لايستطيع الابتعاد عنها ولايهدأ الا اذا كان بقربها . يتكلمان بالنظرات ويتخاطبان بالبسمات ولاشيء غيرها ، يثبت نظره فيها وتثبت نظرتها فيه ، فيبتسم احدهما الى الآخر ، ثم لايحول نظراته عنها الا ليعود ويثبتها مرة اخرى فيها حتى اذا التقت الانظار ابتسما . فيطلق افكاره تسبح في عالم من الخيال تداعب رأسه احلام حلوة لذيذة فيها الشيء الكثير من الاماني والتخيلات وما يعود اليه صوابه ويدرك الحالة التي هو فيها الا وتغشيه غاشية من الحزن العميق ويغرق في لجج من الآلام فتهده هداً وتحطمه تحطيما ، فهو اول مابدأ يفكر حين استحكم

الحب من قلبه وتغلغل في نواحي قلبه بصعوبة واستحالة الزواج منها فهو يعلم علم اليقين ان خالته ستثور في وجهه اذا هو فاه بحرف يتعلق بطلب يد ابنتها وانها ستبعده عنها وتمنعه من المجيء اليهم . لانه فقير لايملك من حطام الدنيا غير راتبه البخس . وانها لم تفكر في يوم بامر مثل هذا ، فلا تزوج ابنتها الامن رجل غني ثري ذي مركز اجتماعي عال وصاحب وظيفة محترمة في الدولة ، والا فان ابنتها ستبقى عندها ماشاء لها ان تبقى اذا لم يكن العريس كما تريده هي وكما يصوره لها خيالها ، لذلك اضطر الى ان يكتم حبه في قلبه ويغالي في الكتمان وقنع بهذه النظرات البريئة والابتسامات العذبة ليعيش في عالم الرؤيا ودنيا الخيال وصار لايخلو بنفسه الا ليثبت القلم بين انامله ويغرق في الكتابة ، يناجيها على البعد ، ويبثها حنينه ويبعث اليها بلواعجه في الفاظ منمقة وعبارات عذبة ، ونفس ملتهبة وخيال متقد . فيجد بعض الراحة في الكتابة هذه ويجد بعض السلوى .

وفي يوم وبينما هو عندهم ، لحظ شيئاً غير عادي ، شيئاً لم يالفه من قبل . فقد سمع حديثا يدور بين خالته وزوجها كالحديث الذي كان يدور بينها وبين امه حين هموا بزواج اخته واطراق يطول وكآبة ترتسم على وجوههم . واستطاع ان يعلم من سقط الحديث ان شابا في الحي الذي يسكنونه قد تقدم لخطوبة ابنة خالته وان زوجها قد وافق على هذه الخطوبة وان خالته قد مانعت في ذلك ممانعة شديدة

لأن الفتى وان كان له بعض الثراء الا انه ليس له عمل في الحكومة وانه يعتمد على تراثه الذي خلفه له ابوه ينفق منه مايشاء . ان اول شرط تريده خالته من الذي يتقدم بالخطوبة الى ابنتها ان يكون ذا منصب محترم في الدولة وهذا ليس له اي عمل في الحكومة ومعني ذلك ان الخطوبة يجب ان لاتتم وان القران لايكون ، فهي كانت تثور مرة وتهدأ اخرى ، وتسب وتلعن حتى علم ان الفتى قد رد طلبه وخيب مسعاه وان خالته هي التي ردته ومنعته بالصلابة التي اظهرتها والتمنع الذي اصرت عليه .

لاأدري اذا كان عادل قد فرح لفشل الفتى ام لا . . ؟ لأنه يعلم اذا سولت له نفسه في يوم وتقدم الى خالته لطلب يد ابنتها فان نصيبه سيكون نصيب الفتى هذا بل اشد واعنف لان الفتى يملك بعض الثراء وهو لايملك اي شيء . واذا كان قد فرح حقيقة فلان المجال قد اتسع له وطال امد النظر الى ابنة خالته والتمتع بمشاهدتها مدة اطول .

مضت اشهر على الحديث هذا وانتهي عام كامل لفراقه لأمه عانى ماعانى فيها من عنت الايام وقساوة القدر وتجهم الليالي ، ولولا وجود بيت خالته ولولاها هي وتعلله بالامانى وتحليقه مع الاوهام لانتهي به الحال الى الجنون المحتم والخبال الاكيد ، فهزه الشوق للذهاب الى امه وعاوده الحنين اليها ، فعزم على السفر اليها والمكوث بضعة ايام

ليتسلى برؤية اهله اولا وليهدي، النار المستعرة بين جوانحه وليرح اعصابه التي انهكها التفكير وهدها الاطراق المتواصل . فحقب امتعته وسافر . ومكث هناك بضعة ايام ثم عاد ليكتب في مذكراته ويقول.

«ذهبت اليهم وياليتني لم اذهب . ذهبت بتلك القوة من اللهفة والشوق ورجعت بقوة اخرى فيها معنى الاهمال والهجران . ذهبت لارى امي التي فارقتني يحفزني شوق سنة كاملة . ولكن وا أسفاه لأني ماوجدت تلك الام التي فارقتها . انها ماتت لا . . معاذ الله ، انها لم تمت ، انها حية ترزق ولكن الذي مات فيها هو هموره وحنينها بل لقد مات قلبها . فعجبت وقلت : ايهذه السرعة قد انتزعت الايام من قلبها حب ولدها وحنينها له وامحى من ذاكرتها كل شيء مرة واحدة . كان الله لم يرزقها غير ابنتها تلك . »

«ذهبت بقوة ورجعت ابقوة . وشتان بين القوتين . وشعرت فيما بعد ان تلك الدموع التي كانت تذرفها لم تكن — كما كنت اخال — دموع المنبعثة من قلب مفجوع مكلوم وانما كان حزناً اشبه ما يكون بحزن تلك الفتاة التي لطمت خدها وشقت جيبها ونفشت شعرها واسالت دموعها ومشت وراء جنازة تبكي وتولول . لاحباً بالميت وعطفاً على من تركهم ولكن لاظهار حسنها ومفاتنها . الا ما اشبه تلك الدموع بهذه فانها وان اختلفتا في الصورة الا انهما لا لعدوان الخداع والمخاتلة . »

« ذهبت اليهم فوجدت البدانة ظاهرة في اجسامهم والدم يترقرق في وجناتهم واعدت النظر الى نفسي فاذا بي كالعود الجاف ليس في شيء غير الجلد الذي يلف العظم لفاً بغير هندسة او تقسيم . وقلت لها فيما قلت ان يكفي البقاء مع ابنتها طيلة هذه المدة وان عليها لابنها بعض الحق من الرعاية كما لابنتها على حد سواء . واستعطفتها ان ترجع معي لنعيش كما كنا وشرحت لها سوء العيش الذي اقاسيه والحياة التي احياها . وقلت لها انهي تركتني مدة اطول فان الحال سينتهي بي الى عاقبة تلام هي عليها وتندم . فان الوحدة التي اقاسيها ستنتهي بي الى الجنون المحتم . وكاني في كلامي ذاك كنت اخاطب شبحاً لايسمع ولايعي . وايقنت انها لم تعد امي واني نزعت من قلبها البتة »

« وكنت انظر واشعر ان قلبي يتمزق ويتقطع قطعة بعد قطعه من وطأة الحزن والالم . وكنت اخلو بنفسي وافكر طويلا وابكي ابكي لاني لاادري ماانطوت عليه نفسي من ظلمة وحلكة ، وماتخبؤه لي الايام من آلام واحزان ، فانا ما اكاد افاجيء بواقعة او بحزن او بالم وما اكاد اروض نفسي على نسيانها الا واصاب باخرى اشد منها وارسخ . والبعض حين يتطلع الى حقيقة يجهلها يهش لها ويضحك لانه كان في غفلة عنها . ففرح لانه علمها . . بيد اني لا اتطلع الى حقيقة اجهلها حتى ابكي لها واحزن واقول : ياضيعة الايام التي قضيتها »

« ولقد شعرت بعد رجوعى من هناك بأني اصبحت انساناً آخر غير الانسان الذي ذهب · اهيج لاتفه الامور واغضب لادنى سبب وقد يبلغ بى الهياج والغضب الى ان اسب واشتم كل تلك الانفعالات انما هى من شدة تعاقب الصدمات التي ارتطمت بها والتي اتخوف من الارتطام بها · · »

— ١٨ —

بكى عادل ما وسعه البكاء وذرف من الدموع ما علم الله ..

فمن حقه ان يبكي ، ومن حقه ان يذرف الدمع ، فها هوذا قدفقد امه ومعنى ذلك انه فقد اصدق عطف في الوجود فحاطته الاحزان من كل جانب ولم تدع له مجالا وغدا كالتائه في بيداء قفر لا ظل يحتمي به ولا ماء يبل ظمأه . وفى اثناء هذه البلبلة الفكرية وفي اثناء هذه الثورة من الاعصاب بدأت تداعب رأسه فكرة لا يجرأ النطق بها وكأنها طيف يلوح له ويختفي فكرة تدفعه بان يتقدم الى خالته ويطلب منها يد ابنتها فليس الذي تطمع فيه خير منه غير انه فقير ومتى وقف الفقر مانعا بوجه الحب ؟ انه يحبها وهذا يكفي فيستطيع ان يقدم لها ثروة من الحب لا تفنى واشتدت الفكرة هذه وضوحا واحتلت مكانا من رأسه فهي ما تنصرف الا لتعود تحثه وتدفعه وحاول مراراً ان ان يقوه بكلمة فيخونه النطق ويستولي عليه الذهول وهدته الفكرة

هذه الى الكتابة يشرح لخالته وزوجها حقيقة امره ويعلمها برغبته وليكن بعدها ما يكون فاما السعادة التامة او الشقاء القاتل .. انه سيقول لها انه «يحب ابنتها ويخطبها» وهل في ذلك جريمة ومتى كان الحب جريمة ؟ فانتحى ناحية واخرج ورقة وكتب لها فيها كل شيء ثم ابردها في البريد وامتنع من الذهاب الى بيت خالته ايرى رأيها فيه

ولقد جاءه بعدها زوج خالته ، ولامه لتسرعه في العمل هذا ، وافهمه صعوبة الزواج منها وذلك لشسع المسافة التي تفصل احدهما عن الآخر وطلب منه ان يتناسى كل شيء ويذهب ويجيء اليهم كسابق عهده كأن لم يحدث شيء .. اذعن عادل وطلب منه الصفح وذهب لى بيت خالته وقلبه يعلو ويهبط ونفسه تضطرم بشتى الانفعالات وكان قد هيأ في نفسه كلاماً يجيبهم به اذا سألوه عن شيء ولكن الذي اذهله هو جمودهم والتجهم الذي قابلوه به اما هي فانها ما كادت تراه ويقع نظرها عليه حتى ألوت رأسها بسرعة ويممت نحو الحجرة ودخلتها ، ولم يدم مكوثه عندهم غير بضع دقائق قام بعدها وخرج على ان لا يعود ثانية

ومضت أيام وأسابيع ولم يخطر بباله ان يذهب اليهم وجعل يعلل نفسه ويحاورها ويقول لها : « هي انها تجهمت بوجهي وهبي يا نفس ان حبها ذاك كان خداعاً ومكراً وان القصد من بسماتها لم يكن غير التغرر بي والضحك على فتى فتح قلبه لطفلة لا تدرك ولا تعي

قلت لنفسي هبي ذلك فلا أحبها حبا خياليا . لأتذكرها فاستوحي من ذكراها كل شيء يبعث الهناء لقلبي .. لاناجيها ولاصغ من مناجاتها الآيات لانهـا كانت مهبط غرامي الاول .. » ولا عجب حين وجد من الصعب بل من المستحيل انتزاعها من قلبه ، بيد ان اليأس اماته وهده الضعف وصار كالمجنون لا يدري ما يعمل ولا الى اين يتوجه .. ووجده بعدها زوج خالتـه وانحـدر معاتباً اياه لعدم الذهاب اليهم فوعده ولكنه اخلف .. وجاءوا هم اليه ، وعيي في تعليل التجهم الذي قابلوه به وهذه الزيارة التي يزورونه بها . . وذهب في تفسيرها كل مذهب ولـكنه لم يهتد الى حل .. وألحوا عليه بالمجيء اليهم فذهب يدلف متردداً تارة ومستحثاً اخرى حتى وصل ودخـل وألقى اليهم التحـية فردوا والابتسامة تعلو شـفاههم . . ووقف لم يحر ولم ينبس الا ببضع كلمات سألهم فيها عن صحتهم وحمرة الخجل تصبغ وجنته . وطلبوا منه الجلوس .

أما هي .. فانه لم يجـدها حين دخل الدار وحسبها خارجها بيد انه ما لبث حتى سمع صوتها فعلم انها فوق سطح الدار . . ومضت عدة دقائق ولم يرها فأيقن انها تتهرب منه وتتحاشى رؤيته .. ولم تكن لها حيلة غير الفرار من امامه والاختباء اما في الحجرة او السطح .. ولربما ادركت قبح نظراتها تلك التي حـدجته

بها فهربت كأنها لا تريد رؤيته ومن يدري لعل امها هي التي امرتها بالهروب ومن يدري أيضاً فلعل نظراتها الشزراء تلك كانت بوحي من امها ايضاً .. وما حيلتها هي غير الاذعان لما يقولونه لها

وكان في اثناء وجوده عندهم يفكر في كل هـذا ويعجب غاية العجب من مقابلتهم تلك وأمرها بالهروب منه وتبدلهم جملة واحدة وهو لايدري هل ارتكب بفعلته تلك جريمة لا تغتفر ؟ فانكروها عليه وهولوها وعظموها .. ؟ وهل ان خطوبته لها حكاية ابت عقولهم ان تحملها !! هو قريبهم .. وهو لا يعلم أي فرق بين ابنتها وبين ابن اختها ثم ما الذي دعاه الى تجاسره ذاك وطلب يد ابنتهم غير العطف الذي أحاطوه به والرعاية التي قدموها له والحنان الذي اغدقوه عليه ، وحسب انه وجد أهلا يرعونه بحمايتهم وعطفهم وحنانهم بعد ان فقد جميع أهله ومحوهم من تاريخ حياته ثم اي شيء كانوا ينتظرونه منه أو منها وهو يترعرع بين أحضانهم وينمو وتسير هي مع الزمن فتشب وتنضج وتكتمل انوثتها .. ان الفرد اول ما يقع نظره من الناس فعلى قريبته وكذلك هن .. فكيف كانوا يتعامون عن ذلك أو يتجاهلون كل شيء ، حتى تتحكم في قلبه وتستحوذ على مشاعره وتبادله الحب باختلاس النظرات وتبادل البسمات ثم تمر الايام واذا ها

يصبحان شخصا واحداً يبكي في الدجى اذا انسرح في مخدعه ولا يستطيع النأي عنها

اطرق يفكر في كل هذا وانتظمت الذكريات في رأسه فآلمته كثيراً وشعر انها تحز في نفسه وتقطع قلبه . وكلما اطرق يفكر فيما انتهى اليه تمنى لو انه مات قبل هذا ولا يتحمل هذا العذاب .

ومهما يكن فانه ان سمح للذكريات تداعب رأسه واطلق خياله يسبح في عالم ايامه ميتة فليس هو الاصدى لذلك الحب الذي يتجاوب في انحاء قلبه . وانه ما يكاد يتخيلها بفكره او يعرض له اسمها صدفة حتى تستولي عليه نشوة من بقايا ذلك الحب .

ومضت برهة من الوقت وهو يعرض على مخيلته هذه الصور المختلفة الالوان والاشكال واضطرت والدتها لمناداتها لكي تقوم باطعام اختها الصغار وجاءت ولكن بعد ان بح صوت الام من النداء . اقبلت وبحضنها اختها تلاعبها وتلاطفها ولا تحول بصرها عنها . وقد تعمدت ذلك حتى لا يقع نظرها عليه . وبقي كالمذهول مما يرى ، فلا هو يعي الذي يحدث او يدرك الذي كان . وراح يختلس النظر اليها بين الفينة والاخرى وشد ما اذهله حين رآها هي الاخرى تختلس النظر اليه . وطال النظر واطالت هي . غير انها اغضت بصرها واطرقت فرأى بوضوح سمات الخجل والاستحياء

ترتسم على وجهها . وما كان في هذا اليوم غير هذه الاختلاسات . وانصرف على ان يعود اليهم فى اليوم الثاني وعاد ، وتكرر ذهابه اليهم وعاد الكلام بينه وبينها رويداً رويداً ولكن فتوراً نسبياً كان لايزال متغلبا عليه وعليها . فلا هو فاتحها بامر او كاشفها بسر ولا اعاد على سماعها اية نغمة من حبه الذي هو في دور الاحتظار ، ولاسمع هو الآخر منها اية لفظة . حتي ولو كان في خلوة فان احدهما لايجسر ان يقول شيئاً سوى كلمات تخص الاطفال . واذا جرهما الكلام فلا يتعدى امها او اباها . حتي ولا كان يدور بخلده ان يفاتحها باي شيء او يلومها او يعاتبها . ونود ان نقول هنا ان الود الذي كان بينه وبين والديها قد اصابه الفتور ايضا ، فقد كانوا يتكلفون المجاملة ويتكلفها هو ايضا وما عاد ينام عندهم وما عادوا يلحون عليه كما كانوا يفعلون سابقا باغلاق للباب ومنعه من الخروج حتى صار يشعر ان ذهابه اليهم اصبح امراً لايطاق . وحسب من المستحيل الرجوع الى مامضى من الايام . وكان يقتصد الذهاب اليهم ولو انهم كانوا يطلبون منه المجيء باستمرار وكان يعلم انها اقوال تقال للمجاملة فقط او ليشعروه انه لازال اثيراً عندهم . وكم

كان يود ان لا يتكلفوا النطق بها لانه يعلم يقيناً ان لا نفع بها ولا جدوى .

وكثرت هذه الهواجس وهي هواجس بدأت تؤذيه أكثر من غيرها لانها هواجس تشعره بشيء من الذلة أو شيء من الثقل الذي لا طاقة له على تحمله ، ولقد جرب أن يصرفها من ذهنه فلم يطق لان الذين يستثقلون ظله ليسوا أجانب واغراباً ليسهل انصراف الذهن عنهم وانما هم أهله ، هي خالته التي تقوم مقام امه بعد ان أنكرته امه .

— ١٩ —

ودارت عجلات الايام واذا بهم ينتقلون الى خارج بغداد فاحتقبوا امتعتهم وهيأوا انفسهم وباتوا للسفر ، وسافروا في اليوم الثاني . وقبل سفرهم اودعوا له امانة طلبوا منه اداءها فرضي على مضض ، غير انه شعر بثقل هذه الامانة وصعوبة ادائها وكتب اليهم كتاب يطلب فيه ردها فلم يستلم جواب . وحل العيد فرأى الفرصة سانحة للذهاب اليهم ورد الامانة اليهم ومن ثم الرجوع وقدر رواحه ومجيئه بيومين فقط . وهيأ نفسه وذهب ، وهو في طريقه الى هناك عادت صور الايام الغابرة تمر امامه مراً منتظما كانها شريط سينمائي لم ينقص منه شيء . فكان يتحرق على تلك الايام ويعجب كيف انها مضت . وكيف ذهب حلوها وبقي مرها ، والا عجب ان هذا المر يزداد كلما فات يوم عليه ، وما شعر الا والسيارة تجوب في البلدة التي هم فيها ، فانتبه الى نفسه واستجمع ما تشتت من فكره وارسل آهة عميقة وصمت . وزجى السائق ان ياخذه الى الدار الموصوفة . ووقفت

السيطرة ونزل ، غير ان الذي سحره في مكانه واعمى بصيرته وشتت فكره هو وجود الفتى الذي تقدم بالخطوبة لها ورد طلبه وشعر بالالم يحز في قلبه والغيرة تسري في دمه وتمنى لو انه بقي في محله ولا يكلف نفسه رؤية منظر تشمئز منه ، وسدر بصره وما عاد يرى شيء فدعاه زوج خالته مرحباً بقدومه فنظر اليه ملياً ثم دلف بطيء وحياهم بفتور ، ولم يجد احدا غيره وذلك الفتى وعلم انها خرجت مع امها لزيارة بيت من اهل البلدة وجلس وهو ساهم مطرق لا يدري اذا تكلم معه ام لا . . وخيم الظلام واسدل الليل ستائره واقبلتا . فتبسمت خالته وتبسمت هي وافترت شفتاه عن ابتسامة مغتصبة وسألوا عن صحته وصحة اهله وهل ورد منهم كتاب ، فاجابهم بكلمات مقتضبة وما زاد شيء على ذلك . وعبثاً حاول جمع شتات فكره المبعثر وعبثاً حاول اخفاء اضطرابه ، ولاحظوا عليه ذلك ولكنهم سكتوا . وقدم العشاء فاكل قليلا دون شهية ثم قعد مدة فالفى الفتى يكر راجعا الى بغداد بسيارته وطلب منهم الاذن بالمنام فاذنوا له ، وقام متثاقل وحين اوى الى الفراش اطلق الدموع وبدأ يبكي ثم شعر ببعض الراحة فاغمض جفنيه وغفى .

وعلم في الصباح ان زيارة ذلك الفتى لهذه البلدة كانت بناء على طلب دعوة وجهت له بمناسبة ختان احد ابناء وجهاء تلك البلدة وكان زوج خالته هو الآخر من جملة المدعوين فالفى بخطيب ابنته

هناك واصطحبه بعد ان ارفض الجمع الى الدار ليبقى بعض الوقت ثم يرجع الى بغداد . ولم يبق هناك غير يومين على رغم الحاحهم عليه بالبقاء ورجع الى بغداد وهو في اشد حالات الضعف والخور وكان يردد في نفسه قائلا بقايا حب قديم لايلبث ان يزول .

وجاءت خالته ومتملقوها الى بغداد ونزلوا عنده . فاوسع لهم صدره ورحب بهم ونسى كل احقاد الماضي وقام لهم بما يقتضيه الواجب ، فما تكاسل في امر ولا تقاعس في طلب ، ومع ذلك فان الفتور كان لايزال بينه وبين الفتاة ملحوظا ، وكان يشعر على رغم وجودها بفراغ قلبه وعدم التفكير بها ولا يدري كيف وكانت صدفة حين وقع نظره عليها وراها تبتسم وبالرغم منه انفرجت شفتاه هو الآخر عن ابتسامة خفيفة وكانت هذه الابتسامة بمثابة باب لتبادل النظرات والابتسامات فيما بعد من جديد ، وشعر ان قلبه يهب من رقاده ويفتح عينيه ، وايقن ان الجذور لازالت باقية ولابد انها ستنمو وتتفرع من جديد ، غير انه كان يغض النظر ويصرف نفسه في جهة اخرى حين يحس بنزوة ينزو بها قلبه . ومهما يكن فالحب كان اقوى منه اثراً في نفسه وقد بدأ يلعب دوره بامعان . ولم تمكث الخالة وابنتها غير ايام قلائل ثم رجعا الى بلدهما . واعقبت زيارتهم بغداد زيارة اخرى بعد مدة ونزلوا كذلك عنده وقام كذلك لهم بما يستطيع وما لايستطيع من واجب الضيافة والخدمة وحين ازمعوا

على الرجوع دعوه الى زيارة بلدهم بقصد التنزه والحو عليه. بصاحبتهم فسافر .

ويا ليته لم يسافر معهم ليرى بعينه ما يخدش غرة نفسه اويجرح قلبه ، وكانوا في دعوة عند جماعة من المسيحيين ، والمسيحيون لايقيمون وزنا لاختلاط الجنسين ولا يرون ضيراً من مراقصة الفتى للفتاة او مراقصة احدى الجالسات ان كانت تحسن الرقص ، ولا يرون بأساً اذا تكلمت الفتاة مع الشاب وان لم تعرفه من قبل بدون ان يقول لها احد عن أي شيء تكلمتما وفي اي حديث كنتما فهذه وغيرها امور مألوفة لديهم لا يتحاشاها أب ولا تثير حفيظة اخ ، ولا عجب حين شعر بثقل الزيارة هذه ، فليس هم بالمسيحيين ليجاروهم فى عاداتهم ولا اولئك بالمسلمين ليتشحوا بالوقار والجلال .. وقدموا لهم ما كان متوقعاً ان يقدموه ، قدموا لهم الخمر .. وايقن انه ان رد الكأس فسيكون فى نظرهم انساناً وحشياً رجعياً لا يحسن معرفة الاصول المألوفة والعادة المتبعة ، فأخذها وجعل يعب ما فيها .. وسرعان ما افرغها في جوفه ، وقدمت له كأس ثانية فتناولها بغير تردد ، وكانت خالته تصوبه بين الفترة والاخرى بنظرات مفعمة بالحنق والغضب وما كانت تصدق انه يحتسي الخمر ، وكل ظنها انه لم يتناول الخمر قط .. ولم تمس الكأس شفتيه .. ثم انها ما كانت تريده ان يتعود شربها .. فاستحسن

منها ذلك غير انه لم يعبأ بها وكان يتجاهلها ، ولم تطق صبراً لتجاهله اياها فلم تلبث حتى دعته اليها وكانت تجلس مع اهل الدار وقد انكرت منه فعلته هذه واخذت تقدم اليه النصح والشرر يتطاير من عينيها وكانت تتمنى لو ان بامكانها لدقت عنقه ولألهبت جلده بالصوت ، واكتفى بان هز لها رأسه وخرج وقد زاد ذلك من حنقها وغضبها ، ومشى مدلفاً نحو الباب وحين سألوه الى اين لم يجب بشيء وخرج

ومشى ببطء وهو ساهم مطرق وشعر ان ثقلا جاثما عليه يحاول ابعاده فأطلق السيل لمدامعه وجعل يبكي ويكى طويلا وهو يسرى في الظلمة محاذياً الارصفة واي وسيلة عنده غير البكاء والحق انه ما كان يهدأ أو يسكن حين يلم به هم اذا لم يذرف الدموع ويبك حتى ان عينيه قد ألفت الدموع فلا عجب اذا احمرت ما قيه وتركت أثراً لا يزول بانتهاء الدموع

ووقف يحدج في الظلام الذى كان يهيمن وكان لا يحس فرقا بين الظلام الذي يحدج فيه وبين الظلام الذي في قلبه فهو كان يتخبط في تلك الدياجى عله يهدىء نفسه من أضطرابها وقلبه كان يتخبط فى تلك الدياجي ليهدأ هو ايضا ويسكن وطال وقوفه فى مسافة لاتبعد كثيرا عن الدار ولم ير الا الفتاة تخرج فتلقي نظرة نحو اليمين واخرى نحو الشمال كالتى تفتش عن شيء حتى وقع بصرها

عليه فشى مدلفا نحوها واقتربت هي ايضا منه وامعنت النظر فيه فرأت اثراً لا زال باقيا من تلك الدموع التى ذرفها ولم تلبث حتى قالت : —

— مابك .. ؟ لم لا تدخل .. ؟

بيد انه لم يجب واكتفى بان هزلها رأسه وما كان يستطيع النطق بكلمة واحدة ، وسألته ايضاً بوجهها عما به فافهمها بوجهه ان لاشيء ولم تطل حتى الوت رأسها وذهبت . ولايدري ما كانت تقوله في نفسها ، ثم لايدري هل انها رقت لحالته تلك ام انها هزأت منه واتهمته بالغباوة والشذوذ في الاخلاق . اذ لم يكن ذلك الوقت وقت بكاء ونحيب ، ولا هو وقت تفكر باشياء تجلب الحزن الى النفس وانها كانت طيلة الوقت فرحة مسرورة طلقة المحيا بسامة الثغر تضحك وتمرح مع اخت صاحب الدار التي اتخذت منها لها رفيقة وخدينة وجعلت تلك تشاركها الضحك والسرور والتفرج على الازهار والاشجار ، ولايظن انه نال من قلبها شيئا وهي كانت في غنى عن كل شيء منصرفة عن الماضي والمستقبل ، وكانت بنت ساعتها كما يقولون ، وما كانت تجد غير الضحك والمرح اما هو فليقتل نفسه بيده وليسقها رويداً رويداً الى القبر ويجعل من الايام ترابا يتناثر من حفرة القبر . ومن الذي يقول له احسنت . ؟ لااحد . لااحد ابداً ولكن ماحيلته ونفسه انطبعت على الحزن والألم . وسمع نداء يردد

اسمه وانصت عله يتبين الصوت واذا هو صوت خالته . وكان قد هدأ بعض الهدوء وزالت من على وجهه علائم البكاء ، وما كادت قدمه تخطو باب العتبة حتى تبسم لهم وصار يتكلف الانطلاق والبهجة كي يخفي آخر علامة من علائم الحزن ولكي يشعرهم بان نفسه غير منقبضة وما كاد يطلع عليهم حتى سألوه .

— اين كنت . . ؟

فاجابهم والابتسامة كانت لاتزال تعلو شفتيه : لقد غشيت قليلا طلبا للهواء الطلق .

قالوا : عجل من امرك ارجع . ورجعوا . فذهب تراً الى فراشه وانطرح عليه حيث استأنف البكاء من جديد حتى غلبه النعاس فنام

وفي اليوم التالي لزم طريقه الى بغداد وهو في اشد حالات التأثر غير انه اخذ يهديء نفسه ويصبرها ويرجو لها السلوان . وبعد ركوبه السيارة ، وبعد ان سارت بهم مسافة من الطريق بدأت الدموع تنهل من جديد بغير ارادة منه فلفت اليه ابصار الراكبين معه وقد حدقت فيه عيون الركاب وكان لكل تحديقة تفسير . ولا يدري ماكانوا يقولونه في سرائرهم ولم يعبأ بهم واسترسل في البكاء حتى شعر بهدوء يعود الى نفسه قليلا ومسح بكمه قطرات الدمع المتألقة في مآقيه وصار يضحك .

— ٢٠ —

ومضت الايام تدور والحوادث تتتابع كان منها الحلو ومنها المر الا ان المر كان يشوب هذه الحوادث والامور أكثر من حلوها ، فالنكبات تتتالى والشقاء ينهال والظلام يهيمن ، فما يتخلص من امر حتى يقع في آخر ، وما يزحزح نكبة حتى تحل اخرى ، فمن نكبة الى شقاء الى ظلام الى حزن الى دموع لا تنقطع . ولا يدري اين مخبأ كل هذه الآلام وكل هذا الشقاء لتتجمع كلها وتنصب عليه مرة واحدة حتى أماته اليأس وبات على غير امل من هذه الحياة ، وما اقسى الحياة اذا غضبت على شخص .

اجل لقد راحت عجلة الايام تدور والحوادث تتتابع ولكن خيالها لم يرض ان يروح ويزول عن مخيلته ، وكثيراً ما كان يراها في الحلم وكل رؤيا كانت تترك في نفسه اثرا لا يزول وفي قلبه حنينا يتضاعف .. وتمر الايام فيتناسى الذي رآه ثم يهدأ قليلا غير ان الرؤيا هذه لم تكتف بترك اثرا في نفسه وحسب الا انها جعلته يهب

من رقاده يفكر ويعيد على مخيلته ما رآه ويبكي . « رأى كأن امها قاعدة في كنف امرأة لم يتبين ملامحها بوضوح تشكو اليها ابنتها واصرارها على حبها اياه . وهي ماضية في افهام المرأة بان لافائدة فيه لأنه لم يبلغ في الحياة الدرجة التي يحق له بها الاقتران بابنتها وعلى رغم سردها على المرأة معنى فشله واخفاقه اخذت تسوق لها حوادث الطفولة وطيشه فيها ؟ وعلى بعد من امها والمرأة التي تتسمع شكواها كانت تجلس ابنة خالته وقد رآها ترفع بيدهـا الحذاء وهي تحاول ان تقذف به امها وقد كررت قولها عدة مرات وهي تقول . . كذبت كذبت . . وهو واقف خلف الباب يراهم ولا يرونه ، وما سمع الذي قالته الخالة حتى دنى نحوها وعاتبها على قولتها تلك وقال لها : ان ذاك هو طيش الطفولة وليس هناك طفل يخلو من عبث وطيش وانصرف » واستيقظ من نومه فجعل يعيد على مخيلته ما رأى ويجسمه ويبكي ونالت منه هذه الرؤيا مالم تنلها اخواتهـا السابقات ، وخصوصاً وهي تكذب امها والدموع تتألق في مآقيها وتقول لها كذبت .. كذبت . . وتأكد من حبها له على رغم انه حلم ، وان لاعبرة بما يراه النائم .

وبعد يومين من هذا الحلم جاء الجميع الى بغداد ونزلوا عليه كما فعلوا في السابق وحين قام الى الشاي ليأتي به اليهم نادت الام ابنتها وطلبت منها ان تقوم هي بصب الشاي وجلبه وكان قد شرع بصبه

في الاقداح فاخذت ابريق الشاي من يده لتفرغه هي وادنت رأسها منه . ولم يرفع عينيه اليها خوفا من ان يعتليه الاضطراب ويحاول خطف قبلة منها على غير اختيار منه فمسك بطبق الاقداح وهرب . وفي اليوم الثاني ذهبت الخالة وبعض من كان معها الى السوق لابتياع بعض الحاجيات وتركوه معها واخوتها في الدار ، فاخذ يختلق الوسائل لاخفاء اضطرابه ولكي يبدو رزيناً هادئاً ولكنه اخفق . فها هوذا قلبه يراها امامه فكيف تريد منه ان يسكن او يهدأ ويخفي اضطرابه ويقلل من ثورته واشتياقه ، فكم كان يتمنى ان يلقي بنفسه عند قدميها ويسيل دموعا ودما ، ولكن انى لقلبه ذلك وهو محاط بهذا القفص الصدري . اما هي فقد لحظت عليه ذلك وصارت تبتسم .

يالله المسكين .. او تريد ان اصف وقع الابتسام في نفسه واثره في قلبه ، وكيف ان نفسه اخذت تطير في الفضاء وتسقط لتعلن عن سرورها ، وقلبه كيف كان يخفق ليعبر عن سعادته . بيد ان هذا السرور وهذه السعادة لم يدمان غير دقائق فترجع النفس الى حزنها لاستشعارها ان التي بيدها هناءه واطلاقه من الاسر لتبخل عليه حتى بكلمة واحدة . ولكن هل باستطاعة احد ان يامرها بذلك اذا لم تأت بمشيئتها ورضاها ؟

وفي المساء لحظت الخالة على وجهه الشحوب والهزال البادي على جسمه فراحت تعظه وتنصحه بوجوب العناية بنفسه وقالت له : ان

ذلك يؤول الى سقامك واذا مامرضت فليس لك من يقوم بمواساتك وتمريضك ثم سكتت قليلا وقالت وهي تضحك . « لابد انك عاشق وان عشقك يدعوك للسهد والسهر وانك تقضي الليل كله تفكر في عشيقتك حتى هزل جسمك واعتلاك الشحوب وهي من علامات العشق ، بينة واضحة » ثم زادت من ضحكها واجهرت بالسخرية منه فتحرق غيظاً وكاد يخاشنها الكلام ولكنه سكت . وسكتت هي هنيهة ثم قالت وللضحك يهز جسمها « لابد انك لم تدر ماهو العشق او انك تفكر به كما كان يفكر به اسلافنا القدامى بقلوبهم السليمة والقناعة التي كانت تغلب عليهم اما الآن فليس هناك شيء اسمه العشق واذا وجد فانه لايتعدى الدراهم التي يملكها العاشق وكذلك انت فاذا كان لديك شيء من الدراهم فقد تعشقك كثيرات والا فلا تقحم نفسك في اتون مستعر لايحترق فيه غيرك . فانك لن تحظى من تلك الى تذيب نفسك من اجلها بغير ابتسامة ملؤها الهزؤ والسخرية . . »

وهم بان يقوم فيقبلها ولكن الحياء قد اقعده فقد كانت الحقيقة فيما قالت ، وهي ان تكلمت فانما تكلمت عن نفسها وعن ابنتها لتصرفه نهائياً عن التفكير بها . والفتاة الآن تحسب انه لابد من الذي تسول له نفسه بان يحبها ان يقدم عربوناً لهذا الحب . والعربون في عرفها هو ان يغرقها العشيق بالذهب ويسكنها قصراً فخماً ويلبسها

الحرير والدمقس ويضع لها خدماً يقبلون الارض بين يديها . ومن ثم تفكر . . هل من الضروري ان تحبه هي ايضاً . او تبدي له بعض الود او تقتصر على حبه دون حب غيره . ثم تسائل نفسها : وما علي انا حتى اقدم له الود هل انني قلت له تعال واطرح تحت اقدامي غرامك ام انه جاء يتمرغ بمشيئته ورضاه .

* * *

هنالك قوتان تصطرعان في نفسه ، قوة تدفعه بعنف وغضب الى المجون والقصف والعربدة والضحك المتواصل من العالم اجمع واخرى تمسكه بلطف وتحبب له الانزواء في ركن قصي بعيد عن العالم متجنباً هذه الحيوانات التي تسير على هيئة الاناس . بعيدا عن الانفس وما تطوي من شرور ، يسح الدمع ليجد فيه السعادة ويبتعد عن ذلك الذي يعصر عينيه ويخرج دموعاً ليقول لك انها شدة الالم والحق انها من شدة المكر والخداع . ولايدري اي القوتين ستتغلب على الاخرى .

— ٢١ —

وفي احدى الامسيات جاء مخدعه وانطرح فوق فراشه كما يفعل في كل يوم وهو مشتت الفكر مبلبل الرأي . وكان قد اصابه ارق منذ ما يقارب الشهر فكان لابد ان يتقلب على الفراش ساعات طوالا قبل ان يراود اجفانه النعاس . ولا نظن انه قد نام ذات ليلة قبل الثانية بعد منتصف الليل . ولا يدرى كيف وعلى غير عادته قد هب من النوم فى ما يقارب الساعة الخامسة صباحا وها له ان يرى مصباح الحجرة المقابلة مضاء . وادار رأسه ليتذكر فيما اذا كان قد نسى اطفاء المصباح من اول الليل ولكنه تحقق انه قد اطفأه قبل ان ينام وبقى في حيرة من امره واجتاحته شتى الهواجس والخواطر. وصار يتساءل في نفسه عمن اضاء المصباح . ؟ فلا بد ان هناك لصاً يحاول سرقته ، فجلس متربعاً على الفراش واشخص ببصره الى الحجرة المقابلة ولكنه لم يجرأ ان يقوم ليرى من هناك . ذلك لأنه لم ير في حياته لصا ثم انه لا يملك أي سلاح يقابله به اذا اشهر هو سلاحه — وعلى

فرض ان هنالك لصا حقيقة — فالاجدر ان يتبع مكانه وقد اباح للص ان يأخذ ما يشاء ويذهب فاغمض عينيه وسحب الغطاء على وجهه وقال .. فليعمل اللص مايعمل .. ولكنه لم يرتح الى هذا القرار فقال في نفسه : ان ليس من السهل ان أنام هكذا وادع اللص على مرأى من عيني يأخذ حاجياتي ويذهب وتحركت فيه الرجولة واحس بالقوة تملأ نفسه والشجاعة تملأ قلبه فهب واقفا كما يهب الليث متأهبا للنضال .. وبدأ يدب على اطراف أصابعه مختلسا الخطوات خوفا من ان يسمع به احد حتى لقد خيل اليه انه هو اللص وان عليه ان يتحامى ايقاظ صاحب الدار فوقف هنيهة واراد ان يصرخ مستنجدا بالعسس والجيران وفتح فمه متاهبا للصراخ وشد ما راعه حين شعر بالكلمات تتراجف هي الاخرى في حلقه وتأبى ان تخرج فلم يبعث منه غير صوت ضعيف لا يكاد يسمع او يميز لضعفه وحار ماذا يصنع واستمد من ضعفه قوة فاذا بالشجاعة تتيقظ في نفسه من جديد واخذ يزحف حتى وصل الى باب الحجرة وجمع قبضته ودفع الباب بقوة وشد ما راعه حين لم يجد احدا هناك وزاد في عجبه حين رأى الاثاث كله في محله لم تمسسه يد ، والقى نظرة الى اعلى واخرى الى اسفل فلم يجد اي دليل على وجود احد . وكان اليوم عاصفا مترببا وليث هنيهة وهو مشدوه مما يرى ، وفجأة اسقط الهواء علبة تنك فارغة الى اسفل فاحدثت صوتا مفزعا حملته على الهروب والالتجاء الى

غرفته وسد الباب خلفه سداً محكماً ثم ارتمى على سريره وسحب الغطاء على رأسه واستيقظ حوالي الساعة الثامنة صباحا وكان المصباح لايزال يضيء فراح يفتش من جديد ، فصعد الى اعلى ونزل الى اسفل فوجد كل شيء كما وضعه لم تعبث به يد . وقص هذا الذي حدث على احد زملائه فقال له: لابد ان جرذاً قد عبث بالزر فاضاء المصباح وسواء اكان الجرذ يمكن ان يعبث بالزر ويضيء المصباح اوانه هو الذي جلس في النوم على غير شعور واضاء المصباح من حيث لايدري او انه كان قد نسي ان يطفئه من اول الليل . اليس هذا وحده كافياً لهزة اعصابه وتضعضع افكاره وتشتيت شعوره . اوليس هذا وحده كافياً لخلق الوحشة في نفسه والكآبة في صدره ولجعله شابا عصبياً شاذاً . اوليست هذه الحادثة وحدها كافية لتقريبه من الجنون وكيف اذن هو في هذه السنين الطويلة التي قضاها وحده في هذه الدار الموحشة الكئيبة . والله يعلم وحده كم لوثة دخلت الى رأسه وجعلته في اكثر الاحيان يكسر هذا ويمزق هذا ويعبث بهذا . . . والله يعلم وحده كم مرة راح يلقي للسامه العنان ليتكلم وليس هنالك من يسمع ويهذر وليس هناك ما يستدعي الهذر فاني مجنون هذا . . وقد يهق مرة ويبوء وينبح اخرى وتسحب تلك الصيحات حركات من يده او جسمه كله . . . والله يعلم وحده كم هي الدموع التي ذرفها على تلك المخدة التي كان يتوسدها وينام .

وبعد هذا كله يريدون منه ان يكون انساناً كسائر الناس ولن يظهر بمظهر المعافى السليم يهش ويضحك كأن الالم والحزن لم يرسما فيه سماتها التي لا تمحى .. وينظر بعين متفتحة للجمال كأن الدموع لم تحرق ما فيها ويستقبل الدنيا بقلب غض طري ليرقص ويغني كأن اليأس والقنوط لم يعاركاه في يوم ..

ابعد هـذا كله يلام اذا خرج على النواميس المعتادة وخالف طباعها وعاداتها واخلاقها ... او اذا ظهرت منه بعض الشذوذ في ميوله وطباعه ؟

ورأى اصدقاؤه مايكابد ويعاني من الأم نفسية حادة فاشاروا عليه بالزواج وقالوا له : انك ان تزوجت ذهبت عنك جميع هذه الآلام التي تعانيها وستتبدد عنك الهواجس وتزول من فكرك هذه التخيلات التي توجدها هذه العزلة وهذه الوحدة في هذه الدار الموحشة ، ثم التي زادت فكرة الزواج في رأسه رسوخا هذه العجوز التي كانت تتردد عليه بين حين وآخر لغسل ماوسخ من ثيابه وكنس الدار وقضاء بعض اشغاله السطحية ويظهر انه قد قبل هذه الفكرة لابل شغلت جل تفكيره حتى التجأ الى العجوز لتخطب له الفتاة التي اختارتها له وارادت ان تزوجه بها . وهي على ماقالت : فتاة طيبة سليمة المنبت، طاهرة النفس عفيفة ، تختلف عن باقي فتيات هذا العصر ، يتمة الاب والام تعيش في كنف خالتها او عمتها من وارد خلفه لها ابوها . وهي فوق ذلك ، جميلة الصورة ذهبية الشعر رشيقة القوام لاهي بالمهزولة ولا بالربلة . تبلغ من العمر نحو ثمانية

عشر عاما . ثم تمهل قليلا عن ارسال العجوز التي كانت تلح في انجاز الخطبة وظل يتردد على رغم رغبته الملحة حتى جاءت الخالة الى بغداد فراحت ابنة الخالة تبش في وجهه وتبتسم ولكنه كاد يغض الطرف عنها ولايعيرها اهتماما لان فكرة الزواج من تلك الفتاة التي وصفتها له العجوز كانت قد شغلت بعض فكره ولعل الفتاه احست بعدم اهتمامه هذا فراحت تستفهم عن اسبابه فقد عهدته مدلها بها مفتونا وفي معرض الكلام مع خالته صارحها بانه قد ازمع النية على الزواج. فارتسمت على وجوههم سمات الدهشة وطلبوا منه الايضاح . .

وحاول ان يفهم حقيقة شعورهم في تلك اللحظة فلم ينجح. اما الام فكانت تهزل مرة وتجد اخرى وتطلب ان يدلها على الفتاة لتراها هي وكانت تبرأتها لاتخلو من هزو واستخفاف اما ابنة خالته فقد عجز ان يقول عنها ان شيء . لأنه لم يستطع طوال هذا الزمن ان يعرف رأيها فيه وحقيقة شعورها تجاهه . اهي تضمر له وداً بود . ام ان نظراتها تلك وابتساماتها لاتتعدى الشفقة والمواساة لما يكابده وما يدريها هي اي شيء يكابده . واي صراع كان بينه وبين الالام . واي دموع كان يسحها . وكل مايستطيع ان يقوله هو ان لونها امتقع قليلا حين سمعت بخبر اقدامه على الزواج وان عبوسا ارتسم على وجهها . وهو يعترف انه كان متسرعا في افشاء تلك الفكرة وما كان الواجب الافضاء بها . كذلك يعترف ان التسرع صفة ملازمة

له في جميع اعماله وطالما اوقعه في اخطاء كثيرة وطالما ارتكب بسبب التسرع اعمالا تكاد تكون صبيانية ، وقد يكون من العبث ان يحاول تصحيح خطأ وقع فيه فهو ان فعل وقع في خطأ آخر دون قصد طبعاً .

كم يتمنى لو تدري هي . او تدري امها او يدري احد ماجره عليه هذا المذيان من وبال . وما ذرف من اجلها من دموع . فانها ما كادت تسمع لغوه ذاك حتى بدأت تتجهم في وجهه . وما عاد يحظى بتلك النظرات الخاطفة البريئة وغابت عنه تلك الابتسامة الطاهرة . وفي اثناء اقامتهم عنده ثاب اليه رشده ورجع الى صوابه وشعر بفداحة الغلط الذي وقع فيه وعبثاً حاول ان يستعيد عطفها بشتى الطرق فانها انصرفت عنه وراحت تتهرب من امامه . وكل نظرة كانت تصوبها اليه يشعر بانها سهام تتطاير فتستقر في قلبه وتنفذ فيه .

وعلى غفلة سافرت الخالة وابنتها ومن معهم ونسوا بعض ثيابهم فتسرع في جمعها منتظراً قدومهم مرة اخرى . وما كاد يمسك ثوبا من ثيابها حتى تمثلها امامه فراح يمعن فيه النظر امعان الواله المجنون ودارت الدموع في أماقيه وانهلت وصار يجهش ويبكي ولربما رفع الثوب والقى به على وجهه ولعله شمه بلهفة ليشم فيه رائحتها ويتخيل رسمها ونظراتها حتى شحب لونه وبان الاصفرار على وجهه وشعر بحمى

تسري في عروقه وقد لازمه سعال يكاد يمزق احشاءه وطالما انطرح على الفراش يتقلب تقلب السليم يئن ويبكي . . ولكن .

ولازم الفراش مدة اربعة ايام بلياليها لم يغمض له خلالها جفن ولم يهدأ له جنب وعانى ماعانى من الآم مبرحة وحمى قاتلة . . تنهش جسمه دون رفق او هوادة والآلام تصطرع فى نفسه فلم تبق فيه شيئاً . ثم حين بارحته الحمى صار لايستطيع ان يمشي بضع خطوات حتى يأخذه الاعياء فيقف عن الحراك . وهنالك عزم على الذهاب الى امه طالباً عندها الاستشفاء والاستجمام واتباع تذكرة سفر وسافر فقضى عندها بضعة ايام ثم رجع وقد استعاد بعض نشاطه وعافيته وكانت خالته قد انتقلت الى بغداد اثناء سفره لزيارة امه وقد استأجرت لها داراً فكان اول شيء عمله بعد مجيئه من زيارة امه ان زار خالته في بيتها الجديد وبقي عندها ساعات كان خلالها ساكناً صامتاً لاينبس ببنت شفة ولا يتكلم ان لم يبدأوا الكلام وان لم يسألوه وكان يعاني في نفسه صراعاً عنيفاً وقد غادرهم وهو اشد ما يكون تصميماً على مقاطعتهم والذي مكن هذا التصميم من نفسه هو انصراف الفتاة عنه انصرافاً كلياً ويأسه من رجوع مودتها اليه فقد الفاها معرضة عنه او شبه معرضة فزاد ذلك من الله وشجعه على الانقطاع

ومرت ايام وهو يزداد عناداً ومغالبة لنفسه حتى لقي من عناده مالا طاقة له على وصفه ونفد صبره وادرك انه غير قادر على تنفيذ

هذا التصميم فهو لا يطيق ان يتخلى عن ابنة خالته وهو لا يستطيع ان يتناساها حتي وان نسيته بل وان احتقرته .

ولم يدر الا وقدماه تسوقانه الى بيت خالته بعد انقطاع عشرة ايام فاذا به يطرق الباب بدون اختيار منه واذا بها تفتح الباب فتقع العين على العين فتهش في وجهه وتبش فينعى كل شيء ولكنه حين يدخل الدار ويسلم يجلس كالتمثال الاصم لا ينبس بحرف ولا يحرك طرفا ، وكان هذا ديدنه كلما لقيها او قعد بالقرب منها يفقد النطق فلا يستطيع ان يقول شيئاً وان تكلم فكلامه نبرات متقطعة مضطربة ، ومع ذلك جرأ على مداعبتها في هذا اليوم بشكل لا عهد له به من قبل فهو حين شرب الماء رش منه شيئاً على رأسها فتساقط رذاذه على وجهها فغضت الطرف ولم تقل شيئاً ، غير انها سرعان ما غافلته فبادلته الرش والقت على وجهه بقطرات منه فابتسم لها فحدجته بنظراتها وفي كل نظرة كانت تصوبها اليه كان يشعر بان قلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه وكأن جسمه كله يبتل بماء بارد وحين ودعهم وخرج شعر ان الحياة بدأت تدب اليه من جديد وان شعاعا من الامل بدأ ينير له قلبه ويحي رجاءه وحث الخطوات وهو يشعر انه يولد من جديد

-٢٣-

كلما .. وخرج صاحبنا وهو يشعر انه ولد من جديد ، وأحس ان الحياة بدأت تبتسم له بعد طول عبوس لانه حظى بنظرة من صاحبته بل انها داعبته ورشت الماء على وجهه ، وهذا يكفي ليطمئن من انها تحبه وانها تضمر له وداً ..

وجعل يتردد اليهم بين الحين والآخر وفي كل مرة يذهب اليهم ويرجع كان يكتب في مذكراته فيقول « نظرت اليها ونظرت الي » ولا ندري أية حكمة كان يجد فى هذه النظرات ، ولقد سمعنا ان بعض العشاق يتبادلون الحنين والشوق والعتاب والصلح والخصام والرضى بالنظرات ولكنها نظرات تختلف عن نظرات صاحبنا ، ولقد سبر صاحبنا كثيرا من القصص الغرامية وقرأ الكثير عن اخبار العشاق ولكنه كان يعتقد بأن كلما قرأ كان دون ما يحس به من حب لابنة خالته ، وكان يجد نفسه عياً اخرس أبكم حين يواجهها وجها لوجه وكان حين يدفع الى الكلام دفعا يخرج الصوت منه مرتجفاً يحس

بارتجاف، كل من يسمعه فلم يعد بامكانه غير أن يمعن فيها وحين تتجه اليه يطرق لانه لا يستطيع ان يجابهها ..

يقعد بالقرب منها وينظر اليها .. ثم ماذا ؟ ..

لا شيء .. لا شيء غير ان تتلاطم العبرات وراء اجفانه ليسحها دموعا سخينة بمجرد الخروج من بيتهم .. دموعا حرى يصبها من ما قيه صبا ..

وانه بدأ يشعر بتفاهة النظرات هذه بل انه بدأ يضحك من نفسه واحتقرها ولعن الحب اذا كان من بواعث الحب الاهانة والحقارة وذل النفس وكم تمنى ان يكون بوسعه ان يعيد لنفسه العزة فليس من الكرامة ولا من الرجولة ان يدع المرأ فتاة تهزأ به كأي معتوه ، مجنون هو ؟

يذهب اليهم ويقعد بالقرب منها ويمعن النظر فيها

ترى الى متى سيظل على هذا النحو ؟ وما جدوى هذه النظرات فكر في ذلك وأطال التفكير وقرر ان يضع حدا لهذا الحب الذي لا يهدف الى غاية ...

انهم لا يريدونها له وهو ما انفك يحبها ويتمنى ان تكون له فكيف العمل ؟

كان عليه ان يقول شيئا ولكنه لم يقل وكان عليه ان يقوم بعمل ولكنه لم يقم ، وكان عليه ان يحبب نفسه بمختلف الوسائل

الى خالته والى زوجها واخيرا اليها ولكنه لم يقبل لان كبرياءه وعزة نفسه تأبيان التذلل والخضوع وكلما فعل هو انه كتب ذلك الكتاب الذي قال فيه انه يريد ان يخطب ابنة خالته فسمع منهم ما يشعر بشيء من الازدراء وحسب في ذلك الخاتمة لحبه فيجب ان يكون الخاتمة لذله

لقد فكر في كل هذا فاستخلص ان مبدأ حياته لم يخل من شذوذ وكذلك كانت نهاية هذه الحياة وان البيئة التي اخرجته ونشأته حتى شب وترعرع من ذلك الاب وتلك الام وفي وسط تلك الظروف الغريبة وفي محيط غير ذي لون ثابت لا يمكن ان يخرج وينشأ فتى بشكل آخر غير هذا الشكل

لقد كان وقحا يوم كان طفلا حتى لقد لفتت وقاحته اليه الانظار ، وهو اليوم شاب حيي حتى ليخجل ان يرفع رأسه الى الاعلى اذا ما واجهه احد او غريب لم يعرفه فكيف لو رآها هي

يالله كيف ينشأ الضعف من القوة ؟ كيف يمكن ان يخلف ذلك التمرد والوقاحة كل هذه الوداعة والحياء

انه اليوم يستعرض حياته كلها من ألفها الى يائها فيعجب من نفسه ويدرك انه كان شاذا في كل مرحلة من مراحل نشأته فهل بوسعه ان يختم هذا الشذوذ ويبدأ حياة جديدة ؟

انه من الصعب ان يسير الانسان نفسه ما لم تكن له دوافع لهذا التغيير واين هي هذه الدوافع وقد كانت حياته فوضى وقد بدأ ابوه

هذه الفوضى حين كان شاذا ولكن كثيرا من الحوادث الفاجئة قد تحدث الانسان فتغير مجرى حياته فاذا به غير متصل بماضيه بشيء وليست مفاجئة واحدة حدثت لصاحبنا جعلته ان يقعد ليضع حدا لهذا الحب وانما هي سلسلة مفاجئات حدثت كلها متعاقبة واحدة اثر اخرى جعلته على بصيرة من هذه الحياة واتاحت له التفرج على كثير مما يحمل الناس وكان قبل ذلك جاهلا كل الجهل بالحياة بعيداً كل البعد عن النفوس وما تحمل ، وهو الآن يستطيع ان يحكم ويوازن وله رأي قلما يخطيء فقرر ان لا فائدة من هذا الحب وخير له ولهم هو ان يبعدها عن تفكيره ليميت ضربات قلبه ويخمد خلجات نفسه في عصر طغت عليه المادة ومات فيه الاحساس وانصرف الناس الى التكالب حباً بالمال .

وان اليأس الذي دفعه الى هذا القرار كان هو اليأس النهائي لا اليأس الذي كان يشعر به من قبل ، واحس بطبعه يرق وروحه تصفو ولست ادري كيف يجعل اليأس الطبع يرق والروح تصفو فاذا به ينزع الى الادب وقد عد نفسه سعيدا لا لأنه نسي حبيبته فان حبيبته لا تنسى ولن تنسى وانما لان فجيعته بحبه انارت له خفايا كثيرة كان يجهلها وجعلت منه رجلا

هو اليوم قد سبر كثيراً من كتب الادب وكتب بعض المواضيع في بعض الصحف وهو يعتز بذكريات حبيبته ويعتبر نفسه مدينا لها

بفضل كبير يرجو ان يكون هذا الفضل في المستقبل اكبر واكبر وذا فائه ان يظفر بحبيبته عروسا لانه فقير ولانه حيي لم يحسن الاعراب لها عن حبها ولم يحسن خدمة افكار خالته وزوجها فقد جعله الادب ظافرا بخيالها يطالع وجهها في كل صفحة يقرأها فيستمد منه كل القوى ليجعل عاطفته ارق ما تكون ومزاجه اكثر صفاء من صفحة المرآة .

وهكذا كانت نهاية حبه ، ذكرى حلوة جميلة يستمد منها القوة في انتهاج مسلك الادباء ، ولست ادري أهي نهاية سعيدة حقا ام شقية ؟

عبد الله علاء الدين نبلزي

كانون الاول ١٩٤٨

« للمؤلف »

همـــــــس الايام

مجموعة قصص موضوعة

ماهزة للطبع

مطبعة الزاهد

بشارع الامين - بغداد

مستعدة لطبع الكتب والصحف والمجلات وجميع اللوازم التجارية

باتقان وبأسعار لا تزاحم

DATE DUE

J. LIB.

11-3097

JAFET LIB.
13 MAR 1980

JAFET LIB.
- 2 JUL 1990

- 9 JAN 1986

نیازی ،عبد الله
نهایهٔ حب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037689